محمود تيمور



شفاه غليظة

الطبعة الثالثة

سبتمبر سنة ١٩٥٩

شفاهٌ غيظَة

من عادتى أن أتفادَى من الذهابِ إلى المَصارِفِ فى الأيامِ الأولى من الشهر ... ولكن اتّفق لى أن قصدتُ إلى «المَصرِف الوطنىّ» فى مطلَع الشهر لأصرِف صَكا بخمسة جنيهات هى ما بَقِىَ لى على أحد عُمَلائى من أتعابِ قضية . وكنتُ فى جَمْع زاخرٍ أدافعُ جَهدى فى سبيلِ الوصول إلى نافذة الصُّكوك وقد أخذ منى الضّيقُ كلَّ مأخَذ . فلمحت وأنا مدهوشٌ مَغيظٌ فتاةً تمْرُق إلى النافذة بين صفوفِنا غيرَ مَعْنِيَّةٍ بأحد . وأنطلقَ لسانى بلفظةِ احتجاجٍ ، فقابلَتْها الفتاة بإجابة تَحَدٍ خَشِنةٍ ، فازددتُ سخطا ، ولكن لم يُجدِ سُخطى نَفْعًا .

وبينما كنتُ خارجًا من المَصْرِف ، وقد قبضتُ قيمةَ الصَّكّ ، صَدَمَنى شخصٌ صَدْمةً أزعَجتْنى ، فالتفتُّ فإذا بالفتاةِ عينِها تُسابِقُنى نحو الباب ، فرمقتُها بنظرةٍ نَكْراء ، وهممتُ أن أصيحَ بها مهدِّداً متوعِّداً ، فعاجلَتنى بابتسامة رقيقةٍ وهى تردّد :

ألف معذرة ! ... لم أقصد البتة أن أسيء إليك ...

فنظرتُ إليها ولساني لا يزالُ ناقماً ثائراً ، فلم تدَعْ لي فرصة التكلم ، بل واصلتْ قولَها :

كنتُ قليلةَ الذَّوْقِ معك مرتين... ولكني أؤكدُ لكَ أني لم أفعلْ ذلكَ عن عَمْد... إنهم يُرْهقُونَنا بانتظارٍ مُضْنٍ مُثيرٍ للأعصاب ، ولدينا أعمالٌ لا تحتملُ إضاعةَ الوقت ! ...

كانت تتكلمَ وابتسامتُها تزدادُ إشراقاً ونضارة ، فقلتُ لها وقد مرتْ على فمي بَسْمةٌ عابرة :

هــذا صحيح ... إنهم يرهقونَنا بالانتظار ... ولكن لا تَنْسَيْ يا آنسةُ أننا في أول الشهر ... فللمصرِفِ عُذْرُه !

— أوافقُكَ على أن للمصرفِ بعضَ العذر لا العذرَ كلَّه ... على الرؤساءِ أن يدبِّروا الأمرَ ، وأن يبذلوا أقصى الجُهد في سبيل إراحةِ العملاء ... لقد أضاعوا عليَّ محاضرةً كان لزاماً أن أستمعَ إليها في الجامعة ! ...

— أطالبة أنت ؟

— في كلِّيَّةِ الآداب ...

— حسنٌ جداً ...

ورأيتُني أسيرُ وإيَّاها في اتجاهٍ واحد من الطريق ... كانت سمراء على شيءٍ من الملاحةِ ترتدي ثوباً متواضعاً لا يدلُّ

مظهرُه على اليُسْر ، وإن احتفظ بظلّ من الأناقة والذوق السليم ... لا يميّزُها عن مثيلاتِها من يَصْنا يَحْسبُنّ عابرُ الطريق ويماسيهنّ إلا سِمةٌ خاصة : شفتاها ! ... أجل شفتاها ، بيت القصيد فيهما ... كانتا شفتَين غليظتَين لا أراهما منطبقتين لحظة بل منفرجتين أبداً ، تسمحان لخطّ أبيض من الأسنانِ أن يكشفَ عن تألّقِه وتناسُقه ... وإنكَ إذ تنظرُ إلى الشّفة العُليا منهما تلحَظُ على الفوْر كأنها تحاولُ دائماً أن تنأى بنفسِها عن رفيقتها فى إباء وترفّع ، ولقد تَركّزَ هذا الترفّعُ والإباء فى نُتوء يتوسطُها ، نتوء يماثِلُ من وجوه شتّى حَلَمةَ الثّدْي يجتذِبكَ بتكوينِه الفنّىّ ، ويُرغمكَ على أن تُدْمنَ النظرَ إليه ...

وكنا قد قارَبنا « شارع فؤادِ الأولِ » عن كَثَب من مشرَب « الأمريكين » ، فسمعتُها تقولُ :

أتُزْمِعُ ركوبَ الترامِ من هنا ؟

— بل أقصدُ إلى « الأمريكين » لاحتساء قدحٍ من الشاى قبلَ الذهاب إلى المحكمة ...

— اتفاق عجيب ... لى زميلةٌ ستوافيني الآن فى المشرَبِ كى ترافقنى إلى الجامعة ...

— إذن طريقُنا واحد ...

فقالت وقد خطرتْ على محيّاها ابتسامةٌ وضّاحة :

يلوحُ لى ذلك ! . . .

وأردْنا اجتيازَ الطريق ، فاعترَضنَا سَيـــل من العرَبات والناس يزْحَمُ بعضها بعضاً ، فمددتُ لها يَدى، فأمسكتْ بهـا فى رفق ، وعَبرْنا « شارعَ فؤاد » من جانب إلى جانب .

وقالتْ لى ونحن نصعدُ إلى الطبقةِ العليا من المشرَبِ :

أعلىَ موعدٍ أنت فى المحكمة ؟

— مع أحدِ العملاء ! . . .

— أنتَ محـام . . . ؟

— يلوحُ لى ذلك !

فأرسلتْ ضحكةً خفيفةً تعالتْ على أثرها شفتُها العُـليا فى اختلاجةٍ رشيقة على حينَ أخذ النتوء الذى يتوسطُ هذه الشفةَ يتقلـّص وينبسطُ فى جاذبيـّة أخاذة . . .

وأخرجتُ محفظتى وتناولتُ منها بطاقةً قـــدّمتها إليها قائلا :

قد تحتاجينَ إلى محام . . . لا قدّرَ الله ! . . .

فتناولت البطاقة باسمةً ، ونظرت فيها تقرأ اسمى، وتقولُ :

تشرّفنا يا أستاذُ . . . سمعتُ اسمك قبلَ اليوم . . . ما أسعدَنى بهذا التعارُف !

— الشرَف والإسعادُ لى يا آنسةُ .

وكنا قد بلغنا الطبقةَ العليا ، فدارت الفتاةُ بعينيها فى المكان متفحصَة ، ثم همهمت :

لم تحضر زميلتى بعدُ ...

ولم يكن فى المكانِ إلا عدَد قليل منتثرٌ هنا وهنالك ... فقلتُ :

وهل تنتظِرينها ؟ ...

— يحسنُ بى أن أفعلَ ...

— أيسوءكِ أن يكونَ انتظارك لها على مائدتى ؟

فابتسمتْ ، ولكن ما أسرَعَ أن تزايلتْ ابتسامتُها وهى تقولُ :

أخشى عيونَ الفضولِيين !

— وهل تُلقِينَ بالاً لأهل الفضُولِ ؟

— كلاّ ... ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— أليس من النزَقِ أن تجَالسَ فتاةٌ رجلا لم يَمض على معرفتها به غيرُ لحظات ؟ !

— هذا موضوعٌ نستطيع أن نجعله مدارَ نقاشنا على مائدةِ الشاى ! ...

— ولكن يا سيدى ...

— تكلمي ...

— إنها المرةُ الأولى التي أجلسُ فيها إلى رجل في مُنتَدًى عامٍّ ...

— حتى إذا كان من أقربائكِ ؟

— وهل أنتَ من أقربائي؟

— هي ذلك ! ...

— لِمَ هذا التشبث ؟

— محام يرغبُ في كسبِ قضيته ... !

— وهل تحولتِ المسألة قضية ؟

— قضية « صداقة » أرغبُ في توطيدها ! ...

— ماذا تقولُ زميلتي إذا رأتني معكَ ؟

— ألا ترَيْنَ عيون الناس قد بدأت ترْمقُنا ؟ !

— هذا ما كنتُ أتوقعُهُ ...

ودنونا من أقربِ مائدة وجلسْنا إليها . وسرعانَ ما أقبَل علينا غلامُ المشرَب ، فنظرتُ إليها وقلتُ :

— بم تأمُرين ؟

— بقدحٍ من الشاي ...

فقلتُ للغلام :

قدحين ...

وأخذت الفتاةُ تطوّفُ بنظرِها صامتةً فيما حولَها وأنا أُراعيها...

وسمعتُها تهمهم :

ما أسمجَه !...

ثم واجهتني بقولِها :

إنه لم يحوّل نظرَه عني لحظةً منذ قدِمْنا...

— مَن ؟

— هذا الوقحُ... !

قالتْ ذلك وأشارتْ بعينِها إلى رجُلٍ بَدينٍ له وجهٌ كالرغيفِ المُقبّبِ المتوهّجِ، ووصلتْ جملتَها السابقةَ بقولِها :

إنه من حمقى الأثرياء الذين يخالونَ الدنيا طوعَ يمينهم...

— أتعرفينَه ؟

— ومن أين لى أن أعرفَه ؟

— كيف علتِ إذن أنه من حمقى الأثرياء الذين ...

فقاطعتْني فى لهجةٍ حازمة، وقد زوتْ ما بين حاجبَيْها :

إن وجهَه بذلك ينطقُ !

— أنتِ دقيقةُ الملاحظة...

وأقبلَ غلامُ المشربِ بالشاى فوضعَه أمامنا، فملأتُ لها قدحَها وملأتُ لى قدحى، ومضيْنا نجرعُ الشاى على مَهَل، وأخرجتُ علبةَ لفائفى وقلت :

أتسمَحين ؟

— دخِّن كما تشاء ، ولا حرَجَ عليك ...

— وأنتِ ؟

فحدجتْني بنظرةِ عتابٍ قائلةً :

سيدى ! ...

— لا تؤاخِذيني ...

وتناولتُ لفافةً وأخذتُ أدخّنها لحظة فى صَمْت . ومرّ أمامنا الرجـــلُ البدين ذو الوجه المقبّبِ يدرُجُ فى جُهدٍ ومشَقّة . فألقى علينا نظرةً سائحة وتابع سيرَه ... وسمعتُ الفتاةَ تغمغم :

يا لَلْوقحِ ! ...

— حقًّا إنه لسمْجٌ ...

— أما لاحظتَ كيف كان ينظر إلىّ ؟ ... لا أحتملُ رؤيةَ هذا الضَّربِ من الناس ! ... إنهم يمثّلون أمامى ذلك النَّفرَ البائدَ من أمراءِ الإقطاع ... لا تؤاخذْنى ! ...

— على أىّ شىء أؤاخذُكِ ؟

— قد يكونُ فى حَمْلتى على هذا الضرب من الرجال ...

— وهل ترَيْنَنى من هذا الضرب ؟

فضحكتْ فى خفّة وقالت :

لا أقصد ذلك. ولكن يجبُ أن أصرِّحَ لك بأني أمقتُ هؤلاء الأثرياء المتقاعدينَ ذوي رءوسِ الأموال الذين يمتصُّونَ دمَ الشعب !...

— كلامٌ وجيه ...

— إذن أنتَ من أنصار الاشتراكية ...

— وهل قلتُ ذلكِ ؟

— أيّ مذهبٍ اجتماعيٍ تعتنقُه إذن ؟

— لم ألقِ على نفسي هذا السؤالَ حتى الساعة !...

— أنت متعب ...!

— أشكرُ لكِ !...

ونظر كلٌّ منا إلى الآخرِ ، ثم استرسلْنا في قهقهةٍ عاليةٍ وجدتُني أثناءها أرنو إلى شفتيْها الغليظتيْن ، وهما تلتطمان وتتدافعان ، وأرقُب في شغَف ذلك النتوء الجبلَ ، حتى وَدِدْتُ لو طالت ضحكتُها وقتاً ...

وسمعتُها تقول :

اعترفْ بأنك غيرُ صريح !...

— قد يكونُ ذلك ...

— أما أنا فعلى العكس صريحة جداً ...

— هذا حقّ ... إذْ أعلنتِ لي في وَضحِ النهار أنكِ تميلينَ إلى النظامِ الاشتراكيّ !

— ألستُ على صواب فى هذا الميْل ؟... ألا توافقنى على أن التوزيع الاقتصادىّ فى المجتمع الراهن غير عادل ؟

— أوافقُك ..

— بلسانِك وحدَه ؟

— بل بقلبى !

— إذن لقد استطعتُ أن أجتذبكَ إلى صفّى !

فقلتُ فى لهجة هيّنة :

أوَكنتِ تظنّينَ أنكِ غيرُ قادرة على اجتذابى ؟ ...

فأسبلتْ جفنيها، وهى تقول فى صوت لين المكاسِر :

يبدو لى أنكَ سهلُ الانقياد سريعُ التأثُّر ! ...

فقلتُ لها وعيناىَ لا تفارقان شفتيْها :

لا فى كلّ الأحيان !

وكانت يدُها على المائدةِ تعبَثُ بملْعَقَةِ الشاى، فمددتُ يدى وأطبقتُ كفى على راحتِها، فاجتذبتْ يَدها فى غير عُنف، وألقتْ بنظرةٍ خاطفةٍ على ساعةِ الحائط، ثم نهضتْ وهى تقول :

لقد تأخرتْ زميلتى عن الموعِد، وقد أطلتُ فى انتظارى إياها ... يجبُ أن أغادرَ المكانَ .

— أيكونُ قد بَدرَ منى شىءٌ ساءكِ ؟!

— أنا شاكرةٌ على كلّ حال حُسْنَ ضيافتكَ ...

— أنا آسفٌ إذا كنتُ ...

— لا يُساوِرْكَ من ذلك شيءٌ ...

ومدّتْ إليّ يدها وهى تبتسمُ ، وقالت :

إلى اللقــاءِ ياسيدى ...

— إلى اللقاءِ يا آنسةُ ...

واتجهتْ نحو السُّلّم ، وانحدرتْ عليه مُسرعة ، وعُدْتُ إلى مقعَدى ، وأخذَت الشّفَتان الغليظَتان ذَواتا النُّتوءِ اللطيف تتراءيان لى فى كل لحظة ... ولا أدرى كم مضى علىّ من الوقت وأنا فى جَلستى هــذه . ولكنّ ظهور غلام المَشْرَبِ أمامى أيقظَنى من حُلمى . وعلمتُ أنه جاء ليقبِضَ ثمنَ الشاى ، فدفعتُ يدى فى جيبِ سُترتى ، ولشدّ ما كان عجَبى إذْ لم أجدْ محْفَظةَ نقودى فى مكانِها ، وأسرعتُ أبحثُ عنها فى جيوبى الأخرِ وأمعنُ فى البحثِ ، ولكن على غيرِ طائل ... أين اختفَتْ ؟ ... ومن أخَذَها ؟ ... ولمحتْ فى خاطرى صورةُ صاحبة الشفاه الغليظة ... أممكنٌ هــذا ؟ ... وعدتُ أبحَثُ ثانيــاَ ... لم يسلُبْنى المحفظةَ أحدٌ فى الشارع ... إنى على يقينٍ من أنها كانت فى جيبى حينما دخلتُ مع الفتاةِ فى هذا المكان ... ونظرتُ إلى غلامِ المشرَبِ ، وقلتُ

مردداً فى حدَّة :

لقد أخرجتُ المحفظةَ أمامَها ... أعطيتُها بطاقتى ... هذا مؤكد ! ...

فنظر إلىّ فى حيرةٍ وقال مجمجما :

ولكن... ثمنُ الشاىِ يا سيدى!

— أتظنُّ أنى محتال أيها الغبىّ ؟

— العفوَ .. العفوَ ... إنما ...

ودسستُ يدى على الفورِ فى جيبِ صِدَارى ، فألفيت معى لحُسْنِ الحظ من النقودِ الصغيرةِ ما يَفِى بما هو مطلوبٌ ، فألقيته إليه وخرجت أعدو وأنا أكرِّر :

المحتالةُ ... الماكرةُ ... سأدرِكُها ... وسأسلمُها إلى رجال الشرطة ! ...

وارتدتُ المنطقة حول «الأمريكين» أتصفحُ السابلةَ وأتفقدها بينهم وقتاً غيرَ قصير ... ولكن بلا جَدوى !

وقصدتُ فى النهاية إلى مكانِ عملى وأنا محنَقٌ ثائر ! ...

* * *

وفى اليوم التالى بينما كنتُ فى مكتَبى أقلِّب بعضَ المجلاّتِ الأوربية المصوَّرة استوقفتْ نظرى صفحةُ مكتوبٌ فى رأسِها : « مسابقةُ الشفاه » تحوى مجموعةَ صوَرٍ مختلفةٍ لشفاه بعضِ

الغانيات الأمريكيات من كواكب «السينما»، وقد وُضِعَت جوائزُ لمن يكشفُ عن صواحبِ هاتِه الشفاه . ووقع بصرى على فمٍ غليظٍ منفرجِ الشفتين يتوسَّطُ العليا منهما نتوءٌ ملحوظ ... فمضيتُ أرنو إليه طويلا . ولم ألبثْ أن انتزعت الصفحةَ من المجلة وقصصتُ منها الجانبَ الذى يشتملُ على صورةِ ذلك الفمِ ... وقذفتُ بما بَقِىَ من الورقة فى سَلَّة المهمَلات ، وتناولتُ معجمَ « أبوت » الأثرىَّ الغارقَ دائمـاً فى سُباتِه العميقِ على مكتبى ، وأودَعتُ حنايا صحائفِه تلك القُصَاصةَ ...

وكثيراً ما ألفيتُنى بعدَ ذلك أثناء درسى لقضيةٍ من قضاياىَ آخذُ المعجم شاردَ الذهن ، وأمضى عجِلاً أقلبُ صحائفَه ، وسرعانَ ما أجِدُ أمامى صورةَ « الشفاه الغليظة » تحدِّقُ فىَّ فأحدِّقُ فيهـا . ومن ثَمَّ يَفيضُ على نفسى إحساسٌ بَهِيج يُفضى بى إلى أحلامٍ عِذَاب !

* * *

وترادفَت الأيام ... وكنتُ يوماً فى « قسم البغَّالة » أجاذبُ « المأمورَ » الحديث فى قضيةٍ من القضايا ، فتعالت بغتـةً أصواتٌ خارجَ الحجرة ، وفى لحظةٍ اقتحمَ علينا المكانَ رجلٌ جاوز سنَّ الشبابِ يبدو من هيئتِه أنه من ذوى المعاشِ ، وهو

يجـــذب فتاةً من يدها، وينعتُها بأرذلِ النعوت ، رامياً إياها بالسّرقة والاحتيالِ ، على حينَ كانت الفتاةُ تُنكرُ فى تعنُّتٍ ومكابرة ، وتحاولُ أن تخلّص نفسَها منه .

وبرزت أمامى فى الحال « الشفاهُ الغليظةُ » ذاتُ النتوء الملحوظ ، وعرَفتنى على التّو ، وسرعانَ ما وجدتُها تخاذلتْ فأمسكَتْ عن الكلام ، وقد طغَى على محيّاها امتقَاع ! ...

وكان الرجل ما برحَ قابضاً على يدِها ، يسوقها فى عنفٍ إلى مكتبِ « المأمور » ، ولسانُه ينهمرُ بسيل من سبابِه البذيءِ . فتقدمت منه وأخليتُ يدَها من يدِه ، وقلتُ له :

تذكّرْ يا سيدى أنكَ فى دار الشُّرطة ... شأنُ الفتاةِ الآنَ موكولٌ إلى المأمور .

فنظرَ إلىّ الرجلُ نظرةً عاتبةً وقال فى تأتأةٍ :

لقد سرقَتْ حافظةَ نقودى حينما كنتُ فى القهوةِ منذُ أيامٍ ، وقد اختفتْ ولم أعثر عليها فى ذلك الوقت ، واليومَ وجدتُها اتفاقاً فى الطريق ، فقَبضتُ عليها بمعاونةِ رجال الشُّرطة ... يجبُ أن تعيدَ إلىّ ما سرَقتْه ... إنهـا محتالةٌ ... ماكرةٌ ... لصّةٌ ! ...

فلم تعترض على كلامِه الفتاةُ ، بل ظلّت ممسكةً ، وهى تنظرُ أمامها نظراً ثابتاً .

فقلت للرجل :

ماذا أخذتْ منكَ ؟

— ثلاثمائة وثلاثين قرشاً ... غيرَ ثمنِ الحفظة !

فملتُ على « المأمور » وأسررتُ إليه :

إنى أعرفُ هذه الفتاةَ ، وأمرُها يهمّنى ، فإذا قبلتَ ضمانتى، وأطلقتَ سراحَها كنتُ لكَ شاكراً ...

وألححتُ عليه ، وكان ممن يثقون بى ، فقَبلَ ... فانتبذتُ على الفَورِ بالرجل مكاناً قَصيًّا ، ونقدْتُه ما طلبَ ، وخرجتُ آخذاً بيد الفتاة .

وما كدنا نترك «القسمَ» حتى رأيتها تُكركِرُ فى الضّحكِ على حين بغتة ، فنظرتُ إليهـــا مغضّن الجبينِ ، وقلت :

حقاً إنه موقفٌ يثيرُ الضّحك !

فنظرتْ إلىّ بمُؤْخرِ عينيْها وقالت :

أتريدُنى أن أبكىَ ؟ !

— كان الأجدرُ بكِ على الأقلّ أن تَصمُتى !

— ولمَ ؟

— ألا تستشعرينَ الخجَل ؟

— أتبغِى أن تلقىَ علىّ محاضرةً فى علم الأخلاق ؟ !

— وهل تجدِى معك هذه المحاضرة ؟ ! ...

فأطلقتْ قهقهةً ، وقالتْ :

ليس لدىّ من الوقتِ ما يسمَحُ لى بسماع أمثالِ هـذه المحاضرات !

فضغطتُ يدَها فى عنف ، وقلتُ :

كفّى عن هذرِكِ ... وإلاّ ...

فصوّبتْ إلىّ نظرة حادة وقالت :

— وإلاّ ماذا ؟

— أتظنينَ أنى غيرُ قادرٍ على تأديبكِ ؟

— ومن تكونُ أنتَ حتى تبيح لنفسكَ هذه السُّلطةَ ؟

— أبيحها لنفسى بمحضِ إرادتى !

فتضاحكتْ معابِثةً وقالتْ :

ولكننى لا أبيحها لك !

فازددتُ فى ضغطِ يدها وقلتُ :

كفّى عن هـذا الهذَر ... لن تجدِى من ورائه إلا أسوأَ العواقبِ ...

فصاحتْ وهى تشُدُّ يدَها :

ليس لك شأنٌ بى ... اترُكْ يدى ... أسامعٌ ؟ !

فلم أعِنَ باحتجاجها ، بل تماديتُ فى ضغطِ يدها ، فضعفَ صوتها واختلج ، والتمعتْ عيناها ببريق الدموع ... وسمعتها تغمغم :

رجل قاسٍ بلا قلب ! ...

وانطبعت على شفتيها مظاهرُ الذلّ والانكسار ، فأكسبَتها منظراً خلاّباً . . .

ووجدتني أخففُ الضغط عن يدها ، وواصلتْ كلامها قائلةً :

ماذا تريد مني ؟ . . . قل ... ماذا تريد ؟ ! ...

فأجبتُ :

أريد أن أقوّمَ من اعوجاجك ، وأن أصلح من نفسك !

— ولمَ كلُّ هذا يا حضرة ؟

فقلتُ متباطئاً وعيناى لا تفارقان شفتيها :

إنه عملٌ من أعمالِ الخير أقدّمهُ إلى الإنسانية !

— الإنسانية ؟.. وهل تعنيكَ الإنسانية إلى هذا القدْرِ ؟

— يلوحُ لى ذلك ... !

— عجيبٌ أمرُك . . . أتعلمُ كم مالاً أضعتَ حتى الساعةِ فى سبيل هذه الإنسانيةِ ؟

— أعلمُ !

— وقد تفقدُ أكثرَ من ذلك فى المستقبل !

— محتملٌ هذا . . .

— حبّاً فى الإنسانية ؟ !

— أرغبُ في الأخذِ بناصرِ مخلوقٍ تاعسٍ وانتشالِه من هاوية تردَّى فيها...

فحدَّقتْ فيَّ وقتاً صامتة، ثم قالتْ:

أتظنُّ أني لِصة؟

فابتسمتُ قائلا:

— معاذ الله!

— ظنَّ ما تظنُّ ... لماذا تتمتعون أنتم بالمالِ، وفقيرة مثلي لا تلقىَ ما يسُد الحاجة؟

— عدنا إلى الاشتراكية!...

— أنا لم أسرقْ.. إني أنالُ حقاً مشروعا... إني أعيدُ إلى طبقتنا المهيضةِ الجناح بعضَ ما سلبتُموها من رزق!

ومضتْ في حديثها مهتاجة بالغةَ السطوة، وكنا نسيرُ جنباً إلى جنب في خطاً وئيدة، فتركتُها تفرغُ ما في جعْبتها، حتى إذا بلغتِ النهاية قلتُ لها:

إنك لقويةُ الحجَّة!

— أتهزأ بي؟

— كلاّ...

— ما زلتَ تحسَبني لِصَّة؟

— لا أريدُ أن أحسبَكِ كذلك!

— لا تريد ؟ ! ...

ووقفتْ قُبالتي متفحّصة ثم أردفتْ قائلة:

ولماذا لا تريدُ ؟

— هكذا ...

— ولكنني أؤكدُ لك أنني لست لصة ، إنني لم أقدِمْ على ما أقدمتُ عليه إلا لأسباب قاهرة !

وأمسكت برهةً ... ثم استأنفتْ حديثها :

أسبابٌ مشروعة طبعاً ! ...

— هذا محتمَل ...

— لى أبٌ مصابٌ بمرض لا يُرْجَى شفاؤه ، وأربعةٌ من الإخوةِ والأخواتِ كلهم أطفال ، وأنا وحدى أعولهم ... إن عملى المضنى فى حياكةِ الأثواب لا يُدِرُّ علىَّ إلا النزْرَ الذى لا يغنى !

— ومن أجل هذا أرغبُ فى إصلاح أمْرِك !

— ألديكَ عملٌ أستطيعُ أن أقوم به ؟

— آمُلُ أن أجدَ هذا العمل ...

— ما نوعُه ؟

— لا أستطيعُ أن أحدّدَه الآنَ ، ولكنْ أعِدُك بأن أبذلَ ما فى وُسعى لأهيِّىء لكِ عملا نافعاً ...

فانطلقت تقلّبُ فى وجهى عينيها المتسائلتين ، ثم قالت مهمهمة:
أتثقُ بى ؟
ـ أرغبُ فى ذلكِ !
فابتسمت وقالت :
سأزوركَ فى المكتبِ ...
ـ إنى منتظرُكِ ... هاكِ عنوانى ...
ودسستُ يدى فى جيبى لأخرجَ المحفظةَ ، ولكنها بادرتنى بقولها والابتسامة ما زالت تتموّج على محيّاها :
إنى محتفظة ببطاقتكَ التى أعطيتنيها فى الأمريكين .
ـ حقًّا ؟!
فقالت فى صوتٍ خافتٍ ناعم النّبرات ، وهى تعبثُ بأصابعها :
إنها بطاقة ثمينة ... لا أفرّطُ فيها ... أتريدُ أن تراها ؟
ـ إنى أصدّقكِ ...
ـ شكراً لكَ ... والآن يجبُ أن أمضىَ إلى البيت ... أنا آسفةٌ إذ سببتُ لكَ متاعبَ كنتَ فى غنى عنها ... كلّ ما فقدتَه من مال لأجلى سأعيدُه إليكَ حتما ... كن على ثقة بأننى لستُ من الخبثِ وسوءِ الطويّةِ بالدرجة التى يتوهمُها الناسُ فىّ ... ستجدُ على الأيامِ مصداقَ ذلك !

— ما أشدَّ رغبتى فى تحقيق هذا ! . . .

— سأزورُكِ غـــداً فى المكتب . . إذا لم تجد لديك من ذلك مانعاً . . .

— فى أىِّ وقت ؟

— قبيلَ الظهر . . .

— سأنتظرُكِ . . .

ومدتْ إلىَّ يدها فاحتوت كفِّى راحتها . ومكثت قُبالتها وقتاً صامتاً أتملى مفاتنهـــا، والغبطةُ تشيعُ فى نفسى ، ثم همستُ :

أتقبَلينَ أن نتناولَ الغداء معاً ؟

— كما تريدُ . . .

— أشكرُ لكِ . . .

— إلى الملتقَى . . .

— أنا فى انتظارِكِ . . .

وتركتْنى وهى تبتسمُ فى عذوبة ... وطاب لى أن أعودَ إلى منزلى مترجِّلاً ، وسرتُ فى خُطواتٍ هينة . وكنتُ أثنـــاء الطريق أدخِّنُ اللفائفَ واحدةً إثر أخرى وأنا هَيْمانُ أفكر فيما مرَّ بى الساعةَ مع ذاتِ الشفاهِ ... وساءلتُ نفسى مرات :

هل كنتُ مصيباً فى موقِفى منها ؟ ألم يكن الأجدرُ بى

أن أتركها فى « القسم » بين يدى الشرطة وأن أعزز التهمة ضدها عقاباً لها وردعاً لميلاتها ؟ ...

وهنا طفقتُ أناقش نفسى فى فلسفة العقوبة ، وماهى أقوم السُّبل إلى إصلاح المجرم على ضوء المباحث النفسية الجديدة وهداية مبادىء الإنسانية الرحيمة . وانتهيتُ من هذا النقاش إلى نتيجة اطمأننتُ إليها ، وهى أن صنيعى مع هذه الفتاة البائسة خيرُ ما يفعله امرؤ كبيرُ القلب، إنسانىُّ المنزع ، وأننى جدير بأن ألتزم هذا المبدأ فى حياتى أبداً ...

دخلتُ منزلى وتناولتُ عشاء خفيفاً . ثم قصدتُ إلى مكتبى لأدرس بعض القضايا فلم أجد ميلا إلى العمل ، بل أحسستُ تراخياً ورغبةً فى التمدد على المقعد الفسيح ، ففعلتُ ... وامتدت يدى إلى مُعجَم « أبوت » وأخرجتُ صورة « الشفاه الغليظة » ومضيتُ أتأملها مليّاً ... إن لها أبا مصابا بمرض لا يرجى له شفاء وإخوةً وأخواتٍ أطفالا ... إنها لتقضى الليل منكبّة على الحائكة ... وماذا تربح من هذه الحائكة ؟ كثيراً ما تدفع الفاقةُ بالمرء إلى مهاوى الجريمة، ومن ثمّ يهبُّ القانون مطالبا بالعقاب ... حقّا إن فى الأوضاع الاجتماعية لمظالمَ فادحة يجبُ القضاء عليها ... !

وفى صباح اليوم التالى نهضتُ من فراشى ، وقد اعتزمت

أن أتخلفَ عن المحكمة ... ألا يَحِقُ لى أن أمنحَ نفسى إجازةَ يومٍ واحد ؟ أفَحَتْمٌ علىّ أن أستقبلَ كل نهارٍ تلك الوجوهَ السَّمِجةَ ؟ وأن أتلقَّى هذه الابتسامات السخيفةَ التى تحملُ طابعَ الرِّياء ... ؟

وطلبتُ زميلى فى «التليفون»، وأفهمتُه أنى منحرفُ المزاجِ ، فعليه أن يَحُلَّ محلّى فى المحكمة... وأوصيتُ الطاهىَ أن يهيِّئ لى غَداءً طيِّبا ، وخرجتُ إلى السوقِ فأتيتُ بألوانٍ ممتازة من المُشَهِّيَاتِ والحلوَى ...

مَكَثْتُ أنتظرُ قدومَها . وطال انتظارى ، فقلقتُ وساوَرَتْنى ظنونٌ شتى .

وطال انتظارى أيضا . وألحّ الطاهى فى سؤالِه :

متى يؤذَنُ لى بتقديمِ الطعام ؟

وحلَّت الساعةُ الثالثةُ ، ولم يظهرْ لذاتِ الشفاه الغليظةِ أثر ... !

* * *

وتعاقبت الأيام . وبينما كنتُ فى مكتبى وقتَ الأصيل مع بعضِ عملائى ، منصرفِينَ إلى دَرْسِ قضيةٍ مهمَّة ، إذْ دَقّ «التليفونُ» ، وكان المتكلمُ : «مأمورَ قسم البغالةِ» ، فأخبرنى بأن الفتاةَ التى ضَمِنْتها ضُبِطتْ متلبسةً بالسرقةِ ، فهممتُ

أن أصيحَ به أنِ احْبِسُوها ، فقد نَفَضْتُ منهـا يدى ، ولكن وجدتُنى على الفورِ أُلِحُّ عليه فى أن يبعثَ إلىَّ بها على عَجَلٍ ، وعلىَّ إصلاحُ الأمرِ ... فلم يقبلْ ، فرجوته مستعطفا أن يفعل ، فهى فتاةٌ مريضةٌ فى طبعِها شذوذ، يعالجُها طبيبٌ فى الأمراضِ النفسية ، وإنهامن أسرة كريمة ، ولأبيها مكانة ملحوظة فى الهيئةِ الاجتماعية ؛ فمن واجبِنا أن نَصونَه عما يَشينُه ... وأطلتُ فى حديثى ، فأكّدتُ له أننا سنبالغُ فى رقابتِها ومَنعِ اتصالِها بالناس ، وأفضتُ له فى ذلكَ حتى قَبلَ ...

والتفتُّ إلى عملائى معتذراً عن مواصلةِ العمل ، فانصرفوا مُرْغَمين متذمّرِينَ . وانطلقتُ أجولُ فى الغرفةِ بخُطىً مضطربةٍ ، وأنا أُجمجم :

ستَرَى ! ... ستَرَى ! ...

ولكننى لم أكنْ أعلمُ ما أفعلُ معها . كان رأسى مشحونًا بمختلِفِ الصُّورِ المختلطـة المتشابكة ، لا أستطيعُ أن أتبيّنَها أو أميّزَ بينها وعجبت من أمرى : كيف رَضيتُ أن أصوغَ للمأمورِ هذه الأكاذيبَ العجيبةَ ؟ وكيف أسعفتنى بَديهَتى على اختراعِها بمثلِ هذا اليسرِ ؟ !

وظللْتُ على حالى تلكَ حتى قُرِعَ البابُ فوثَبتُ إليه أفتحُه ، ورأيتُها أمامى خلفها شرْطىّ ، وسرعانَ ما صرفتُه

وجذبتُها من ذِراعيْها !

وسمعتُها تقول :

لماذا أتوا بى هنا ؟

فرميتُها بنظرة محتدة ، وقلتُ :

يالكِ من سيئة الطبعِ خبيثة !

ـــ أراكَ ثائراً ؛ لأنى لم أزُركَ كما وعدتُك ...

ـــ أوَ تظنّين أنى صدّقتُك ؟

ـــ صدّقتَنى ، وانتظرتَ مقدَمى بفارغ صبر ...

ـــ أنا انتظرتُك ؟... أنا ؟ ... هل بلغت بىَ الغباوةُ أن أهتمّ بشخص حقيرٍ مثلِك ؟ !

ـــ أجل ، أنتَ مهتمٌ بهذا الشخصِ الحقيرِ : مهتم به أشدّ الاهتمام ... !

ـــ اخْرسِى ...

ـــ ولقد تعمّدتُ ألاّ أحضُر ؛ لأدفعك إلى انتظارى ...

ـــ يا لَلْوَقِحَة !

ـــ أما سببُ اهتمامك بى فأمرٌ لا يخفَى عليك ... إنك تهوَانى .. أجلْ تهوانى ! ...

فصحت وقد أقبلتُ عليها متنمّراً :

أنا أهواكِ ؟ ... أنا ... وهل فيكِ شىءٌ يُحَبُ ؟

ـ أنتَ مُدلّةٌ بي ... ولكنني لن أنيلَكَ مُتَعاكَ ... حتى القبلةُ الصغيرةُ سأمنعها عنك !

أنت أعجز من أن تمنعى عنى شيئا . . . ولكننى زاهدٌ فيك لحقارتك . . . ما أشد افتقارَك إلى ما يجتذب الرجل ! . .

ـ إنك تذوب شوقا إلى لثم شفاهي ! ...

ـ شفاهُك ؟ ... ها ! .. ها ! .. شفاهُكِ الغليظةُ المتورّمة المُدلاّةُ كشفاهِ أقبحِ الزنُوج ... ؟

ـ لن أنيلَكَ شرفَ لثمِها أبداً . ستظلُّ محروماً إياها مهما يستعرْ لهيبُ غرامِك ، وتتأجّجْ نارُ شوقِك !

ـ غرامى ؟ ... شوقى ؟ ... سأريكِ كيف أنا مغرمٌ بِك مشوق إليكِ ... سأريكِ !

واختطفتُ خيزُرانةً كانت ملقاةً على أحـــد المقاعد ، وأمسكتُ «ذاتَ الشفاه» وانهلتُ عليها ضرباً ، ورأيتُها تحاولُ المقاومةَ باديء بدء ، ولكنها وجدتْ منى مؤدّباً عنيفاً عنيداً صعبَ المِراسِ ، فاكتفتْ بأن تحْمى جسمَها من لَسعِ العصا المرنةِ ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ... ثم انطلقتْ تستعطفُنى وتسترحمُنى ، فلم أستجبْ لها ، بل ظللتُ جاداً فى الضربِ فى مهارة وتفنُّن حتى أدركنى التعبُ ، فتركتُها ... وجلستُ على المتّكأِ أمسحُ وجهى وأغمغم :

لعلكِ بعد هذا تقلعينَ عن غيِّك وتثوبينَ إلى رُشدك ...

وألفيتُها تزحفُ إلى ركنٍ من أركانِ الغرفةِ تجمَّعت فيه وراحت تنشجُ .

وقمتُ إلى مكتبي ، ومضيتُ أعبثُ بأقلامي صامتاً ، وأنا أنظرُ إليها من طرفٍ خفيٍ ... ثم قلتُ كأني أحدّثُ نفسي :

ستشكرينَ لي هذا الصنيعَ ... إنه درسٌ نافعٌ لكِ في الحياة !

فلم تُجبني ، بل جعلتْ تنشجُ نشيجَ طفلٍ ذليلٍ مبتئسٍ !...

ولبثنا وقتاً على هذا الحالِ : هي في ركنها تولولُ ، وأنا جالس إلى مكتبي أعبثُ بأقلامي ، وأخالسُها النظرَ الفينةَ بعد الفينة...

وهممتُ أخيراً أن أذهبَ إليها لأترضَّاها ، فوجدتُها ترفع رأسها وتهمهم بهذه الكلمات :

لم أكنْ أستحقُّ منكَ أن تعاملَني بهذه القساوة ...

— بل تستحقّين ...

ومضتْ تمسحُ وجهَها وتنسّق ما تشعَّثَ من شعرِها ، وهي تقول :

لو علمتَ أيةَ عاطفةٍ طيبةٍ أكنُّها لكَ لما فعلتَ معي ما فعلتَ !

فتضاحكتُ قائلا :

أيةُ عاطفة ؟

— لا تزدْ من ألمي بهذه السُّخرِية !

ونهضتْ تقصِدُ مكاني قائلةً :

أقسمُ لكَ إني كنتُ معتزمةً زيارتكَ وَفقَ الموعدِ الذي ضَرَبناه ...

— أتعودينَ إلى هذرِكِ ؟

أقسمُ لكَ إني صادقة في قولي هذا !... لقد كنت حاضرةً إليكَ لولا وفاة أحدِ أقاربي ...

ودنت مني وهي تتكلّم حسيرةَ البصَر :

أأكون منكرةً لجميلِكَ إلى هذا الحدّ ؟

ودنتْ مني أيضاً وهي تقول :

ألم تشعرْ بأني أميل إليكَ ... ؟

فصحْت :

تميلينَ إليّ ؟ أنتِ ؟ !

وانكبَّت على ركبتيَّ تحتضِنهما وهي تقول :

أحبُّكَ ! ..

— وإذا كان هذا مبلغَ شعورِك ، فلماذا كنتِ تعانِدِينَ وتكابِرِينَ ؟

فرفعتْ رأسها إليّ وعيونها شَرِقةٌ بالدموع وقالت :

من فرْط حبي لكَ !

ونهضتْ فطوّقتْ عنقي بذراعيها ، ثم أدنتْ وجهَها من وجهي ، وهمستْ قائلةً :

دونك شفاهي ... هي لك !

وغبنا معاً في عناقٍ حارٍ ، وقبلاتٍ مستعرة ...

وأجلستها بجانبي على المتكأ ويداها بين يديّ ، على حين كانت عيناي لاترتويان من النظر إلى شفتيها ... وقالت لي :

لن أفارقك !... لن أفارقك أبدا !

— كيف ؟

— ألا ترضى أن أقيم معك؟

— وأسرتكِ ؟

— لا يستطيع أحد في العالم أن يحول بيني وبينك !

وعقدتْ مابين حاجبيها وقالت في صرامة :

سأقرر مصيري بنفسي . أنا حرّة في تصرّفي . لا سلطان لأحدٍ عليّ !

وسمعنا في هذه اللحظة دقًّا بالباب فألفيتها تفزع إلى رقبتي تتعلّق بها ... تهمس في نبرات مختلجةٍ :

لا تفتح . لا أريد أن أعودَ إليه !

وسمعت صوت الطاهي يسألني عن طعام المساء ، فطلبت إليه أن يرجعَ بعد فترة ... ثم التفتُّ إليها وقلت :

ممن تخافين ؟

فتحركتْ شفتاها دون أن تنطق بحرف ، وعدت أقول :

فيم الفزع ؟ . . . ممن تخافين ؟

فقالت والحيرة تجول فى مآقيها :

أأستطيع أن أعوّل عليك ؟

— كلّ التعويل . . .

— أقادرٌ أنت على أن تدفع عنى كلّ أذى ؟ أقادر أنت على حمايتى ؟ حمايتى منه . . .

— منْ هو ؟ . . . من ؟

— هو . . . هو . .

— أبوك ؟

— ليس لى أبٌ !

— إذنْ من يكون ؟

فأخفتْ وجهها فى صدرى ، وطفقتْ تنشج قائلةً :

لقد كذبْتكَ . كلُّ ما أخبرتكَ به مَحْض اختلاق . . . اغفرْ لى ! . . .

— أوضحى كلّ شىء . . . تكلّمى . . .

فرفعتْ عينيها إلى وقالت :

لاتحقدْ علىّ . . . إنى فتاةٌ بائسة . . . لا نصيرَ لى فى الدنيا

سِواكَ ... ألم تقلْ إنك راغبٌ في إصلاح أمرى ؟

— عوِّلى علىَّ واكشفى لى عن متاعبكِ وهمومكِ !

— إذن لن يستطيعَ أن ينالنى بسوء !

— من هو ؟

— هو الذى يأمرُنى فأطيع ... هو الذى يلَقنّنى كلَّ كلمةٍ أتفوَّه بها ، ويَرْسُم لى كلَّ طريق أسلكه ... هو الذى يفرضَ علىَّ إتاواتٍ يجبُ أن أؤديها إليه كلَّ يوم ... هو أصلُ بلائى !

— من هو ؟

— هو شيطان لقينى فى طريق الحياة ، فحوَّلنى من فتاةٍ طيبةِ القلب، طاهرة الذيل ، أدرسُ فى معاهدِ التعليم بنشاطٍ إلى حيث ترى ... أهوى إلى الدَّركِ الأسفل !

— ولماذا لا تتركينه ؟

— لا أدرى ! ... لا أدرى لماذا لا أستطيعُ تركه... ولكنى أؤكدُ لكَ أن كلَّ شىء انتهى الآنَ ... سأستأنف معكَ عهداً جديداً ... إنى أضع حياتى كلها بين يدَيكَ ، فأقلنى من عثرَتى ، وانتشلنى مما أنا فيه .

— لا تخشىْ أحداً مادمتِ معى ! ... كونى على ثقة بأننى لكِ نعمَ الهادى ونعم النصير ...

ووجدتها تريح رأسها ثانية على صدرى وترْخى أجفانها ،

وقد شاعت فى وجهها طمأنينة وهدوء…

وغمرنا الصمت والسكون . . . وأخذ ضوء النهار يشحب ..

وطال صمتها وهى مسبلة الأجفان . وكان صدرها يعلو ويهبط فى حركةٍ منتظمةٍ ، فأحطتها بذراعى فى رفقٍ وطفقت أتطلع إليها مجتلياً سحرها الخلاب . . .

يا اللهِ ! . . . لم أرها على هذه الفتنةِ من قبل . . .

* * *

استيقظت والصبح قد بدأ يتنفس ، ودرت بعينى أتفقد « ذاتَ الشفاهِ » .. فلم أجدها ، فناديتها فلم يجبنى أحد .. فانطلقت أبحث عنها فى الدار فلم أعثر لها على أثر…فقصدت إلى حجرةِ مكتبى حيران مضطرباً ، فوقع بصرى على درج المكتبِ مفتوحاً وألفيت حلقة المفاتيح معلقة بقفله ، فأخذ منى العجب كل مأخذ … إن حلقة المفاتيح لا تبرح جيبى !

وهرعت إلى الدرج أبحث فيه ، فلم أجد محفظةَ نقودى ! ..

ووقفت مبهوتاً ، وقد انتفخت أوداجى ..وعدت إلى بحثى فى دقة وتحرٍّ منادياً « ذاتَ الشفاه »…ولكن كل ذلك كان بلا جدوى !..

واندفعت إلى « التليفون » أطلب « قسمَ البغالة » وما كاد يجيبنى حتى أعدت السماعة مكانها فى عنفٍ وأنا أردد :

غلط ! … غلط ! …

وجعلت أقطع الحجرة ذهاباً وجيئة ، وبغتةً وقع نظرى على معجم « أبوت » ملقىً على الأرض فى إهمال ، متجمعاً بعضه على بعض كشيخ طحنته السِّنون . وأبصرت بقصاصةِ الورق تطل من بين صحائفه فانحنيت أجتذبها ، وما إن طالعتنى صورة « الشفاه الغليظة » حتى انهلت عليها دَعكاً وقذفت بها فى عرْضِ الحجرة . . .

وانثنيت على المعْجم فوقع فى وَهمى أنه يَرمقنى فى خبث وتهكم ، فركلته ركلة شتتتْ من أوراقه ، وبعثرَت من فصوله . . . !

القبـــلة التائهة

قالَ «أبو نَصر» أحد روَاة الأدَب في عصر بَني العَباس:
كنت عند «مُحَمّد بن يَسَار اليَزيدي» أحد أمراء الجند في عَهْد الرشيد، وكان قد أرْبَى على السبعينَ، وخَلَدَ إلى حياة العُزْلَة في قصره المنيف على «دجلة» في ضواحي «بغداد»، وكنت أزور هذا الأميرَ بينَ حين وحين، فنقضي الوقتَ نعرض معاً عصر الرشيد، ونتذوَّق أخبارَه في تشوق واستمتاع. وكان قد مضى على وفاة الرَّشيد عشرونَ عاما ونَيِّف.

وقصدْت إلى الأمير في أصيل يوم من الأيام، فوجدته في الحديقة جالسًا وَسطَ الرَّياحين على وسائدَ من الدِّيباج. فما إن رآني مقبلاً عليه، حتى لاحتْ على وجهه ابتسامة وقال:
كنت أفكر في إرسال من يطلبك الآن يا أبا نصر...
— خيراً أيها الأمير!
— اجلِسْ...
فجلست على وسادة، على مَقْرَبَة منه. وكان يحيط بنا

نافورَات نحاسيةٌ على شكلِ أسُودٍ تَقذِف المياهَ من أفواهِها في عَظمة خلَّابة ، وسمعته يقول وهو يحدّق في وجه أسد من هذه الأسود :

بي رغبةٌ في التحدُّث إليكَ في حادثة وقعتْ لي أثناء صِبَايَ ، يكتنفها لغزٌ لم أستطعْ حتى اليوم الاهتداء إلى حله ...

وتقلّبَ الأمـــير على وسائِدِه ، ثم أخرجَ من صدْرِه علبَةً صغيرة من الخشب ، زكيَّةَ الرائحة ، عليها رسومٌ فارسيةٌ جميلة . وناولَني إياها ، فأخذتها وأنا أتفحّصها معجبًا بدقيقِ صنعها .

وسمعت الأميرَ يقول :

لقد عثَرت اليومَ على هذه التحفةِ في خِزانةٍ لي قديمةٍ ، فأثارتْ في قلبي ذِكرَى بعيدةً . ذكرى محببةً بالرغم مما فيها من غموض .

وفتحتُ العلبَة ، فإذا فيهـــا ياقوتةٌ وزمُرُّدَةٌ ، يتوسّطهما قلب من العاج. فرفعت عينيّ إلى الأمير متسائلا... فقال :

أياقوته ، أم زمردة ؟

فقلت :

لا أفهمُ شيئا يا مولاى !

— اِستمعْ لي فسأرْوي لكَ قصتهما .

وكانَ ضوء النهارِ قد بدأ ينحسر عن المكان ، وأخذت الظلمة تتسلل بخطاجريئة ... واسترخى الأمير فى جلسته ، وأسبل جفنيه وقتا وهو صامتٌ ، فحسبته قد أغفى . ولكنه لم يلبث أن تكلم فى صوت خافت يقول :

كنت ذاتَ مَساء جالسا فى موْضعى هذا ، منذ خمسةٍ وعشرين عاما ، أطلب الوحدة والراحةً بعد يوم عاصف مزدحم بالزُّوَّار . وكان ذلك على أثر عودتى من الثغور الغربية بعد انتصارى الحاسم على جيوش الروم ، فرأيت الخادم يتقدم منى فى خطا متردِّدةٍ . فقلت له :

ما وراءكَ يا أبا زهير ؟

فقال ، وقد خَفَضَ بَصَرَه :

شخص يطلب المثولَ بين يديك يا مولاى !

فرميته بنظرة نكراءَ وقلت :

ألم أخبركَ أنى لن أقابل أحـــدا ؟

— إنها غادة من علِيَّة القوم ، تُلح فى طلب لقائك !

— غادةٌ تلح فى طلب لقائى ... ؟

ونَكَّسْت رأسِي طويلا ، ثم نظرت إلى « أبى زهير » وقلت له :

أدخلها ... ولكنِ الويلُ لك إن كان فى الأمرِ مالا يستحق الذكرَ !

وبعدَ قليل ، ظهرتْ غادةٌ ، أنيقة الملبس ، تخفى وجهها خلف نقاب من الحرير ... تقدمتْ منى ، وانحنتْ ، ثم قالت فى لهجةٍ فصيحة :

السلامُ عليكَ أيها الأميرُ !

ــ وعليكِ السلام ... اجلسى !

وجلستْ على وسادة بعيــدةٍ عنى ، والعطر يفوح منها ، فيتخاذل عطر البستانِ إزاءه فى خزى . واستطعت أن أرى ملامحها الفتانة خلفَ النقابِ . فنظرتُ إلى «أبى زهير» وقلتُ له :

دعنا وحدَنا الآن !

وتركنا «أبو زهير» ومضى وقتٌ والغادةُ لاتتكلم ولاترفع نقابَها .

فقلت لها فى صوت رقيق :

أما آن للبدر أن يُسفر ؟ !

فألقت بالنقاب جانباً ، فظهر وجه يسطعُ كالقمر فى الليلةِ الظلماء ، فقلت :

لِمَ لا تقتربينَ ياحسنائى ؟

ــ أنا وصيفةُ الأميرةِ «ياقوتة» يامولاىَ . أرسلتنى إليكَ

فى أمر خاص .

فقلت مردداً :

الأميرة «ياقوتة» الفارسية ؟

— هى نفسها يامولاىَ !

وكانت أخبار الأميرة على الرّغم من كتمانها لشخصيتها قد ذاعت فى «بغداد» ، ولكنها ظلتْ على الدوام محوطة بالألغاز والأسرار . وكان الناس يروون فى شأن جمالها أوصافاً لا يسمعها المرء إلاّ فى الأساطير ، ويتحدّثون فيما تعيش فيه من الترف البالغ أحاديث لا يقبلها العقل السليم ، حتى إنها لفرْطِ جمالها ، وما يحيط بحياتها من غموض وسحر ، قد أصبحتْ قبلة النظر ، ومسرح الفكر . بيد أنها بقيت أمنع من عُقاب الجوّ على مُريديها ...

فالتفتُّ إلى الوصيفة ، وقلت لها مبتسما :

حقا لقد أحسنتِ الأميرة اختيار من يمثلها!

فخفضت من بصرها فى خَفَر ... فقلت :

وبماذا أستطيع خدمةَ الأميرة ؟

فصمتت الوصيفة قليلا ، ثم قالت :

أن تشرّفهـــا الليلةَ بزيارتك ...

فأرسلت بصرى فى الفتاة أتفحصها . ثم حوّلت نظرى عنها وقد انطلقتُ أفكر ، وأنا أقلب الأمر على شتى الوجوه ... ألم

أبذلُ من جهدٍ ومالٍ ـ فيما مضى ـ فى سبيل الوصول إلى الأميرة فرفضت لقائى رفضاً مذِلاً تحطمت معه كبريائى ؟... والآن ماذا جدّ فى الأمر، حتى تبعث فى طلبى من تلقاءِ نفسها ؟ !...

سأرفض بدورى رفضاً قاطعاً، وسأطعن كبرياءها طعنةً صائبة ... فازددت اضطجاعاً فى جِلستى، وقد أعددت كلمة رفضٍ رائعة، فرأيت الوصيفةَ تترك مقعدَها وتقتربُ منى، ثم انحنت فى أدبٍ، وقالت :

والأميرة ترجو منك يامولاى أن يكونَ حضورك بلبُوس الجيش ...

ـ ماذا؟... أأوامر أتلقاها على أن أحنىَ هامتى لها خاضعاً؟! .. وأردت أن أردّ عليها ردّاً حاسماً . فسمعتها تقول فى ابتسام:

لا تنس الدِّرْع والمغفر يامولاى، ولا السيف ذا المقبضِ العاجىّ المحلىّ بالياقوت ...

وقبل أن تسمعَ جوابى، رأيتها تتراجع مبتعدةً، وظلمة الحديقة تبتلعها !

ولبثت ساعة مشدوهاً، أحدّق فى المكان الذى اختفت فيه، وأنا لا أتحرّك ولا أنبس بكلمة . ثم رأيتنى قد وقفت بغتة، وناديت « أبازهير »، فما إن لاح شبحه من بعيد، حتى صرخت :

مائة جلدة .. عقاباً لك على أن أدخلت هذه الدّعيّة فى حضرتى

— مولاى !

— لولا حرمة شيخوختك، لأطحت رأسك من فوْرى !

وأخذت أروح وأجىء فى الحديقة ساعة ، وأبو زهير واقف مطأطىء الرأس ذليل !

وأخيراً دنوْتُ منه ، وصرخْتُ فى وجهه قائلا :

هيِّىءْ لى لَبوس الجيش على عجَل ... ولا تنْس السيفَ ذا المَقْبِضِ العاجىِّ المحلىَّ بالياقوت !

وخرج « أبو زُهير » مهروِلا ، واقتفيْتُ أثرَه إلى الدار ، وأنا أتمتمُ :

سترَى ... سترى ...

* * *

سار بى القاربُ ، يَشُقُ مَتْن دِجلَةَ ، والجوُّ رائق رَخىُّ النَّسمات . وطالَ بنا السيْر ، إذْ كان قصر الأميرة فى ضاحية بعيدة . ومضيت أفكِّرُ فى هذه الدعوة الجريئة ، وهل أصبت فى تلبيتها أم أخطأت ؟ ...

ووقع بصرى على المَقْبِضِ العاجىِّ لسيْفى ، وقد التمعتْ يواقيتُه تحتَ أشعَّة القنـــديل المعلَّقِ أمامى ، وشعَرت يدى تتلمَّس موضِعَ المِغْفَر من رأسى ، والدِّرْع من صدرى ... ثم ابتسمتُ ابتسامةً عريضةً ... أَتَمَّةَ موقعة

سأخوضُ غمارَها بعد حين ؟ !

وبعد وقت لاحَ القصرُ من بعيد ، يتلألأ نوراً ، ويأخذ العينَ بهائه !

واقتربنا منه ، ووقفنا القاربَ ... وما إن قفزْتُ منه إلى الأرض ، حتى برَزَت لى فتاةٌ يتبعُها شخصان ، وإذا بها تتقدمُ نحوى ، وتقولُ :

أيسمح مولاىَ الأميرُ أن أرافقه ، لأدلّه على الطريق؟

وعرفت أنها الوصيفةُ ، فوقفت برهةً أطيل النظر فيها وفى تابِعَيْها ، وكانا خصِيّين فى أبهى حلة وأغلاها . ثم قلت لها مبتسما :

لم أكنْ أسمح لسواك ياحسناتى أن يأخذَ مكانَ القيادة منى ... أتظنين أن الطريقَ يستعصى علىّ ؟!

فضَحِكَتْ ضحكة صافية ، وقالت :

كلُّ امرئٍ يُحسن الضرْب فى مَيْدانِه يا مولاىَ ... وهذا الميدانُ ...

ـ أليسَ مَيْدانى ؟ !

وطرقَت سمعى فى هذه اللحظة أصواتُ غناء رقيقة مصحوبة بعَزْفِ عودٍ وناى ، صادرةٌ من ناحية القصر .. وهبَّتْ علىَّ أنفاسُ الزَّهْر الفوّاح ... وكانت الوصيفة تسير أمامى ، وبيدها

مصباح رائق النور . وسرت خلفها ، وأخذنا نصعدُ مرتقى سهلا لَيِّنا ، مَكسوًّا بحشائش نضرة . فكأنى أخطو على بساطٍ وثير ، ورحت أعابث أفكارى برهةً وتعابثنى ، حتى وصلنا إلى القصر . فاخترقنا بستانا عظيما ، ومررنا بنافوراتٍ وجداولَ وعبرنا قناطرَ تتهدّل عليها الأغصان تهدُّل الشعورِ على مناكب الحِسان ... وسرنا بين الخمائل الرائعة تتطاير فيها أنفاس الحبّ دافئة ريّانة . كلُّ هذا وأصوات الغناء الرقيقة بعودها ونايها تصاحبنا فى رفق وسحر . وأحسست شيئا من الفتور اللذيذ يتسلل ليِّناً إلى قلبى ... ورأيتنى أهمهم :

أحقا أنّ هذا المَيدان ليس ميدانى ؟ !

وانتهى البستان ، ودخلنا القصر ، فإذا بنا نجوز أبهاءً فسيحةً رائعة المنظر بألوان حيطانها وزخارفها وثريّاتها وأرائكها وبسطها ... شيء لم أرَه حتى فى قصور الخلافة ! ... وكنا كلما سرنا ازدادَ الغناء وضوحاً ، وازداد قلبى رقة ورَهافة ...

وأدى بنا المطاف إلى حجرة تغمرها الأنوار الفياضة ، رأيتها تزخر بالقيان الباهرات الحسن ، تتوسطهن سيدة متربعة على شبه عرش ... ما إنْ وقع بصرى عليها حتى أحسست كأن أنفاسى قد احتبست ، ووجدت عينىّ قد تعلقتا بها فى شره غريب ...

وسمعتها تقول فى رقة وعذوبة :

أهلاً بالأمير «محمّد بن يَسار» ، قاهر الروم وسيد الثغور الغربية . وسيف الله المسلّطِ على رِقاب الكفّار !

فهممت قائلا ، وقد انحنيت أمامها :

السلام على الأميرةِ «ياقوتة» العظيمة بجمالها وبعَريق مَنْبتها !

— وعليك السلام أيها الأمير... تقدم... إن مكانك لينتظرك!

وتقدمتُ إلى وسادة بجوارها ، فجلستُ عليها وأنا أقولُ :

أتريننى قد تأخرْت فى الحضور ؟

— كلا . . .

— إن الأميرةَ قـد اختارتْ لقصرها مكاناً بعيداً عن بغدَاد . . .

— إنى أكرَه المدُن ، وأحبُّ العزْلة فى مكان هادىء طَليق الهواء !

— ألا تَـقدَمينَ بغداذ ؟

— أقدَمها نادرًا ، فى الفينة بعد الفينة . . .

ثم صمتتْ قليلا ، وهى تُرسلُ بصرَها فىّ . . . ثم ابتسمتْ قائلة :

لقد كنت فيها صباحَ اليوم . . .

— صباح اليوم !

— وشاهدتُ موكبَ الفاتح العظيم ، وهو يجتاز بغداد على

فرَسه الغرّاء ، محوطاً بفوَارسه الأشدّاء ، تظلله الرايات ، وتلتمع حوله الرماح ...

وألقتْ ببصرها على سيفى ، فقالت صائحة :

ياله من درّة نفيسة . . . ذلك الجبـــار ذو المقبض العاجىّ المرصّع بالياقوت ...

ومدّت يدَها إليه فنزعته منى فى رفق ، وأخذت تقلّبه بين يديها مشغوفة ، ثم مضتْ تستله من غمدِه ، وهى تحدّقُ فيه بعين لامعة ، وتقول :

كم رأساً أطاح ؟

ــ عدداً لا يحصى أيّتها الأميرة !

ــ ولكنه أملسُ كخدّ العذراء ... يالله ... إن الجمال ليختلط فيه مع القسوة ، فلا تدرى أرسول الموت هو حقّاً أم رسول الغرام ! ...

وأدنته من فمها ، وقبّلتْ حدّه . وأنا أنظرُ إليها كالمسحور ، ثم هبّت واقفة ، وقالت :

هبنى إياه أيُها الأمير .

ــ سيدتى ...

ــ أترفض ؟

ــ فابتسمت قائلا :

إن القائد بلا سيف ، كالغانية بلا لحظ !

ـــ أو تحسب نفسك فى ميدان حرب !؟ ..

فأجبت وأنا محتفظ بابتسامتى :

إن الميادين واحدة ، وإن اختلفت الأسماء . . . !

فلا طفت خدّى ، وقالتْ :

أتريد أن تعلن علينا الحرب . ونحن كما ترى قومٌ عُزل ؟

ـــ عفواً أيتها الأميرة !

فضحكت ضحكة عابثة . وقالت :

سأناله منك ، رضيت أم لم ترْض !

وذهبتْ إلى أحد أركان الغرفة ، فعلّقته ، على جداره بعناية. ثم عادت إلى ، ووقفت قُبالتى . وقالت وثغرها مفْترّ وعيناها مسْبلتان :

سنعوضك خيراً منه أيُها الأمير !

وقبل أن تفسح لى المجال للكلام ، صاحتْ :

علينا بالطعام !

وأقبل سرْب من الوصيفات الحسانِ ، يَرْفلن فى أثوابهنّ الفخمة ، بعضهنّ يحمِلنَ الأباريق والطسوت يفوحُ منها أريجُ الوَرْد ، والبعض يهيّئن الموائد ، ويَأتينَ بصحاف الطعـــام الشّهىّ المختلف الألوان ...

وخلعت مغفرى ودرْعى ، ثم غسلت بماء الورد يدى ، وأقبلت على المائدة ، وبدأت آكلُ ، وقد عاد القيانُ إلى غنائهن الساحر . ثم جاءوا لنا بقنينات الخمر الفاخر ، فانطلقت أشرب منها وعيناى لاتفارقان وجه الأميرة .

وكانت الأميرة فى الحين بعـــد الحين تستوضحنى مغامراتى الحربية ، فأرْويها لها فى دقة وتنميق يثيران اهتمامها وشغفـــها ، فتقبل علىّ تطلب المزيد .

. . . . . وانتهى الطعام ، وأنا فى شبه حلم مما أرى وأسمع .

وهمست الأميرة فى أذنى :

أتراك راضياً عن هذه الزيارة ؟

فترنّحَ رأسى قليلا ، وهَمْهَمْتُ :

إنى لأحسب نفسى قد استشهدت فى حرب الرُّوم . وما هذا المكان الذى أنا فيه الآنَ إلا الجنة التى وعد بها الشهداء المتقون ! . . .

فابتسمت الأميرة ابتسامة رحيبة .

وبدأت الوصيفات يرفعن الموائد ، ثم أخذت القيان يتسللن خارجاتٍ . ولم تنقَضِ إلاّ برهـــة وجيزة ، حتى رأيتنى وإياها منفردَيْن فى القاعة ، وقد اضطجعْنا على الوسائد اللينة . . . وسمعتها تقول فى صوتِ الحالم :

لم تبق إلا موقعةُ الخندق . . . لم تحدّثني عنها !

— موقعة الخندق ؟ . . . وهل جاءتكِ أخبارُها ؟

— حمل الرُّواة نُتَفاً منها إلينا . . .

— رَجْماً بالغيبِ ما سمعتِ أيتها الأميرة !

— كيف ؟

— إن موقعةَ الخندق لم يشهدها سواي وعشرينَ فارساً من الأعداء ، حصدَهم سيفي حصداً ، فلم ينجُ منهم أحد . . . فكيف يستطيع غيري أن يعلم تفاصيلها ؟

وأحسست جسمي يتّقِد كشعلة ملتهبة من جرّاء ما شربته من الخمر . فقمت ، وجعلت أقصُّ على الأميرة في حماس مثير موقعة الخندَق ، وأمثّلُ حوادثها تمثيلا دقيقا ، والأميرة مصوبة بصرها إلى ، لاتطرف لها عين ، وقد دعمت خدّها بكفها ، وراحت تسمع في تشوّف . . .

وما كدت أنتهي من سرْد القصة ، حتى ألقيت بنفسي على وسادة الأميرة بالقرب من قدميها . . . وشعرت بيديها تأخذان برأسي ، وتوسده حِجْرَها ، وانطلقت تمسح وجهي ... ثم تلاقت نظراتنا طويلا ، وسمعتها تقول :

ما أروع منظرَ البطل ساعة الهزيمة !

فرفعت رأسي قليلا ، وقلت :

أية هزيمة ؟

فقالت فى صوت لين المكاسر :

إن من الهزائم ما يعدُّه البعض انتصاراً أيها الأمير !

ورأيتنى ألف ذراعى حولها ، وأجذبها نحوى ، وقد أدنيت من وجهها وجهى . ووجـــدت شفتىَّ ترتعشان ، وهما تتأهَّبان لاغتصاب القبلة العظيمة ...

ومكث الوجهان برهة متقابلين ، لا يفصِلُ كلاًّ منهما عن الآخر إلا أنفاسٌ حارَّة تتراسل بها الشفاهُ !

وفى لحظة انفتلت الأميرةُ عنى ، كالسمكةِ تنملصُ من يدِ الصيَّاد ...

ورأيتها تهمهم ، وقـــد برقتْ عيناها بلمعةٍ قاسية ، فيها تحدٍّ وفيها كِبرياء :

لن تنالها !

ووقفتُ مأخوذاً أحدِّق فيها ، ومرَّ برأسى خاطِرٌ محاولتى الأولى ، وما أصابنى فيها من إخفاق مذلّ . فعقدتُ ساعدَى ، على صدرى ، ورمقتُ الأميرة بنظرةٍ تتجلى فيها السيادةُ ، وقلت:

سأنالُ القبلةَ ، رضيتِ ، أم لم ترْضىْ !

ولحظتُ أنها تهمُّ باستدعاء أعوانها . فقفزتُ إلى سيفى ، فانتزعته من الحائِط ، ثم تقدمتُ منها . وأنا مستوثق من نفسى ، وقلتُ :

جربى، واستدعى من تشاء من ... وانظرى كيف يكونُ مصيرُهم!

فظلتْ صامتة برهةً، تختبرُنى بنظرها الثاقب. ثم لاحتْ على وجهها ابتسامة عابثة. وقالت:

كلاّ أيها الأمير ... كنْ مطمئنا ... لا أرغبُ فى دفعكَ إلى معركة خندق أخرى، قد لا يؤاتيكَ النجاحُ فيها!

فقهقهتُ طويلاً، وأنا أتأملُ حَدّ سيفى اللامع ...

وسمعتها تقولُ:

وإذا طلبتُ منك مغادرةَ القصر؟

ــ قبل أن أنالَ القبلة؟ ... هيهات!

ــ من تظننى أيها الأمير؟ ... أحظيّةٌ من محاظيكَ؟!

ــ وأنتِ أيتها الأميرة ... من تظنيننى؟ أطفيلى مهرّجٌ، يقنعُ بأكلةٍ فاخرة ثمناً لما يرْويه لكِ من القصص، وما يُنشدهُ من الشعر؟!

وصمتنا زمناً، وعيوننا متلاقيةٌ لا تطرف. ثم رأيت الأميرةَ تبتسم، وقالتْ فى تمهُّل، وقد حوّلتْ نظرها جانباً:

يالنا من أحمقَين!

ــ هذا ما كنتُ على وَشْك أن أقوله!

وانطلقنا دفعة واحدةً نضحكُ، وقد ارتفعَ صوتنا فى شبه

صِباح . فجاءت وصيفة مهرولة، وقالتْ:

أتطلبُ الأميرةُ شيئاً ؟

ـ أجل يابستانُ .. أطفئى الشموعَ ، وأسدِلى الأستارَ !

فقلتُ على الفوْر :

ما معنى هذا ؟

فأقبلتْ علىّ فى دلال ، وقالتْ وعيناها تسْتعطفانى :

ألا يدع لى القائدُ المنتصرُ أن أطلبَ منه مطلباً واحداً ؟

ـ أوْضِحى يا سيدتى !

فدَنتْ منى ، وهمستْ قائلة :

لن تنال القبلةَ إلاّ فى الظلام !

ـ ولكن ....

ولمحتُ عينيهــا قد اتقدَتا فجأةً كجمرة نار ، وقالتْ فى صوتٍ متهدِّج :

هذا مَطلبى ... فإن رفضته ، فالحربُ بيننا !

وسكتُّ حيناً ، ثم ما لبثتُ أن تضاحكتُ ، وأنا أداعبُ حمائلَ سيفى ، وقلت :

مشيئتكِ نافذةٌ أيتها الأميرة !

وإذا بى أمسك يدها على الفور . وقلت وقد غارت ضحكتى وتشنجت :

أما إن حدثتك نفسك بسوء ...

— لست بلهاء أيها الأمير ...

وكانت «بستانُ» الوصيفة قد أوشكت أن تتمّ عملها فى إطفاء الشموع وإسدال الستُور ... فلم تبقَ إلا شمعة واحدةٌ مضاءة، فتركتها وخرَجت .

واتخذتِ الحجرة أمامَ عينى منظراً موحِشا، فكأنّنى انتقلت فى لحظة بقوة غير منظورة إلى مغارة من مغاور السَّحرةِ . وكرهتُ منظرَ الظلالِ المتراقصةِ على ضوء الشمعةِ الفاتر، ولكننى لم أعبأ به، وقلت :

ألا تنتهينَ من هذه المهزَلة ... ؟

فقالتْ فى طرَاوة ساحرة :

لا تكن عجولاً أيها الأمير !

وأطفأت الشمعة، فلم أعدْ أرى شيئاً، ولكنى كنت أحس وجودَ الأميرةِ من صوت تنفُّسها، وحركة يدَيْها ..

وأخيراً شاهدتُ أمراً عجباً ... ثلاثة نجوم صغيرة كأنها الوشم تتلألأ على صدرِها العارِى . وسمعتها تقول وهى ممسكةٌ بيدى :

كلُّ من كان من نسلَ الأكاسرة يحملُ على صدره هذه النجومَ الثلاثةَ .

وكنت لا أرى من الأميرةِ إلا هذه النجومَ اللامعة تتلألا ، فتنير حولها هالةً من الصدْر فى حجم كفِّ الطفل . أما غيرُ ذلك فظلامٌ فى ظلام !

وأمسكت بمنكبيها ، ولبثت أحدِّق فى تلك النجوم الثلاثة متفحِّصاً إياهـا فى دقة . ثم قلت :

يالله من وشم جميل ، يزيدُه حسناً هذا الصدرُ البضُّ الجميل !

وأدنيتُ وجهى منه ، فأبعدَتنى فى لطف ، وقد غطت صدرها وهى تقولُ :

أتظن أنه وشمٌ كسائرِ الوُشوم من صنع البشر ؟ !

— إذاً ما هو ؟

— إن الطفلَ ليولدُ وهو يحملُ على صدرِه شارةَ النبل هذه أيها الأمير !

— عجيبٌ ... وهل تضمُّ فارسُ كثيراً ممن يحملونَ هـــذه الشّارةَ ؟

— لا أعرفُ إلا شخصين يحملاَنِ هذا الوَشمَ ...

— أنتِ ومن ؟ !

— أختى !

— ألكِ أخت ؟

— اسمها زُمرُدَة ...

— لم نسمع بها ...

فصمتتْ قليلا ، ثم قالت :

إنها أختٌ غير شرعية ، أيها الأمير !

— أختٌ غيرُ شرعية ...وأين هى ؟

— فى القصرِ !

— ولِمَ لمْ تظهر ؟

— هذه رغبتها ...

وجذَبتنى من يدى ، وأجلستْنى على الوسادة ، وقالت فى نعومة :

ألكَ فى كأس من الخمرِ ؟!...

* * *

قال الرّاوى :

وصمَتَ الأميرُ « محمدُ بن يسارالبزيدىُّ » وازداد اضطجاعاً بين وسائدِه ، والأسودُ النحاسيّة ما بَرِحَتْ تقذفُ بمياهها ، فتتوهّج تحتَ ضوْء القمر ؛ كأنها السيوفُ المشهورة !

وطال صمته ، فقلت متشوّقاً :

ثم ماذا أيها الأمير ... ؟

فلاحت على وجهه ابتسامة هادئة ، ثم قال :

أليست هــــذه نهايةً صالحةً ، تنقضى عندها الحادثة

يا أبانصر ؟ ...

ــ والقبلةُ أيها الأمير ؟

فتمطى الأميرُ ، وأرخى جفنيه ، وهو يقول فى لهجة الحالم :

يالها من ليلةٍ رائعة ، على الرّغم من حُلوكتها ، واكتنافها بالأسرار ، لم أقضِ فى حياتى أطيبَ ولا أبهجَ منها . . . ولكن . . .

ــ ولكن ماذا يا مولاى ؟

ــ أياقوتةٌ أم زُمرُّدة ؟ !

ــ بربكَ زدْنى إيضاحاً أيها الأمير !

ــ استمعْ لى يا أبا نصرٍ ، ثم أسعفنى برأيكَ فى اكتناهِ هذا اللغز العجيب . . .

وعاد الأميرُ « محمدُ بنُ يسارِ اليزيدىُّ » إلى جلسته الأولى ، ووَصَلَ ما انقطعَ من حديثِهِ الأوّل ، وهو يداعبُ لحيتَه ... قال :

وأخيراً أخذتنى الأميرةُ من يدى فى الظلام ، وصدرُها العارى البضُّ تتلألأُ فيه الأنجم الثلاثة ، ودنتْ من الشّمعة فأشعلتها . وما كدتُ أتبين وجها على الضوء الناصِل المرتعش ، حتى وثبتُ كأنما لدَغتنى أفعى ، وصرختُ :

من أنتِ ؟ . . . من تكونينَ ؟

فابتسمتْ فى خبث زادها بشاعةً إلى بشاعتها ، وقالت :

خادمتُكَ زمرُّدة !

— أخت الأميرة ؟

— نعمْ أيها الأمير !

— وأىُّ شيطان جاء بكِ الساعةَ ؟ . . .

— أنا معكَ من أول الليل أخذتُ مكانَ الأميرةِ بقربكَ ...

فقلتُ لها وأنا أرتعشُ :

أتزعمِينَ أيتها الشقيَّةُ أنك كنتِ جليستى فى الظلام طولَ الوقت؟... خسئتِ !... كَذِبٌ وبُهتانٌ ما تدَّعِين !

وهجمتُ عليها ، لأمسكَ بها ، فظهرتْ الأميرةُ « ياقوتَهُ » على الأثر ، وسمعتها تقول :

أهكذا تعاملُ أختى أيها الأمير ؟

ولجأتْ « زُمُرُّدَةُ » إلى أختها ، ووقفتْ بجوارها ، محتميةً بها ... يالله ! ... كان قوَامُهما واحداً ، وصوتهما متماثلاً ، وإشاراتُهما متشابهَة .. وهذه الأنجمُ التى تزينُ صدرَهما ...

كأنهما توأمان ، إلا فى السَّحْنَةِ ، فالأميرةَ تترقرق جمالاً وعُذُوبة ، على حينِ تبدو الأخرَى فى دَمَامَةٍ وبَشَاعة !

وجعلتُ أنقـّلُ عينيّ بين « ياقوتة » و « زُمُرُّدَة » وقتًا ثم صرَخْت :

كلاّ ، كلاّ ... كَذِبٌ وبُهتانٌ !

فابتَسمَت الأميرةُ ابتسامةً وَضّاحةً ، وقالتْ :

هو الواقع أيها الأمير !

وتلمّستُ سيفي فلم أجدْه ، وفَطِنَت الأميرة إلى ما يجولُ في خاطرى ، فقالت وهى ما زالت محتفظةً بابتسامتها :

لقد رضِيتَ أن تهَبَني إياه !

وكانت الشموعُ كلُّها قد أشعِلَتْ ، والأستارُ بأكمَلِها قد رُفِعَتْ ، ووجدتُ فى لَمْح البَصَرِ عشرينَ عَبْداً من أشِدّاءِ العَبِيدِ مُدَجّجِينَ بالسِّلاح ، قدأخذوا يُطَوّقُونَنِي ...

وقالت الأميرةُ :

لن تتكررَ موقِعَةُ الخَنْدَقِ فى قَصْرِى أيها الأمير !

ثم أشارت إلى العَبِيدِ ، وقالتْ :

إنهم حُرّاسك حتى تصلَ إلى السفينةِ فى أمانٍ ... طابَ ليلُكَ أيها الأمير !

ولبثتُ حيناً أرقُبُها ، وهى تسير ، حتى اختفتْ عنْ ناظِرَيّ ، وأنا فى ذُهول كمن فَقَدَ عقلَه ... ورأيتُني

أسيرُ ، والعبيدُ أمامي وخلْفي ، حتى وَصَلْتُ إلى السفينة ...

... وما إن عُــدتُ إلى داري ، حتى قابَلَني خادمي « أبو زُهَير » وقدَّمَ لي هذه العُلْبَةَ التي تراها بين يدَيْكَ ، فإذا هي كما هي الآن... رأيتُ فيها ياقوتةً وزُمُرُّدَةً يتوسَّطُهما قَلْبٌ من العاج . فالتفت إليَّ الخادمِ متسائلا ، فقال :

إنها هَدِيَّةٌ مُقَدَّمَةٌ للأمير ...

— مِمَّنْ ؟

فاختلَجَ صوتُ الرجل ، وقال :

أتتْ بها الغادةُ التي حَضَرَتْ للقاءِ الأمير قبلَ العَشَاء...!

فما كادَ يُتِمُّ جملتَه ، حتى ألفيتُ نفسِي قابضاً على رَقَبَتِه ، أحاولُ أن أخْنُقَه !

* * *

ومسَحَ الأميرُ « محمدُ بن يسارٍ اليزيديُّ » وجهه بمنديله المعَطَّرِ ، وهمهم قائلاً :

حتى اليوم لم أهتَدِ إلى حلِّ هذا اللُّغز ياأبا نصر ... مَعَ مَن قضَيتُ هزيعَ ليلتي ؟

فابتسمتُ وأجبتُه قائلا :

علامَ هذهالحيرةُ يامولاى ؟

— كيف يا أبا نَصْر ...!

— أليست العِـبْرَةُ بالمُتْعَـةِ أيها الأمير ؟ وقد قلتَ إنها كانت أروعَ ليلةٍ قضَـيْتَـها فى حياتـك ... !

— هذا حَـقٌ ، ولـكن أيستوِى الحُسْن والبشَاعَةُ فى الخيالِ إلى هذا الحدّ يا أبا نَـصْـر ؟

فابتسمتُ وابتسم الأميرُ ...

ثم صاحَ قائلاً :

الطـعَـامَ يا غلاَمُ ! ...

ملاريا الحب

حَمِدتُ اللهَ على أنى أنهيتُ عملى مبكراً فى عيادتى ، فقد كانت الساعة السادسة مساء حين ودعت آخر من قدموا علىّ من المرضى . وقلت لـ « حَسن » الممرض،وقد خلعت معطفى الأبيض وتركته له :

حسبنا من جهادنا اليوم ... انتهت عيادة الليلة ... أريد أن أخلو بنفسى حيناً حتى أستعد لحفلة نادى الأطباء .

وقصدت إلى الصُّنبور ، وجعلت أغسل يدى ، وسمعت « حسناً » يقول :

موعد الحفلة التاسعة يا سيدى .

ـ علىّ مراجعــة المحاضرةِ التى أعددتها لألقيها ضِمَن محاضراتِ الليلة . . . وأحِبّ أن أمضىَ بسيّارتى متنزّهاً بعض الوقت . . . إنها على بابِ العمارةِ فى الموضع الذى تركتُها فيه ... أليس كذلك ؟

ـ لقد أوصيتُ بها حارس السيارات .

— خيراً فعلت .

وكنت قد فرغت من غسل يديّ ، فمضيت إلى حجرة عملي ، وجلست إلى مكتبي ، وبسطت أمامي أوراق المحاضرة ، وشرعت أطالع وأراجعُ ...

وما كادتِ الساعةُ تقتربُ من السابعة ، حتى كنت خارجاً من بابِ العيادةِ وقد حملتُ محفظتي الصغيرةَ محتويةً المحاضرة. وكنتُ جِدَّ مسرورٍ من نفسي ، إذ استطعتُ أن أجملَ في هذه المحاضرةِ زُبدَةً وافيةً لأحدث الآراءِ في مكافحة «الملاريا» فقد كانت حفلةُ الليلة خاصّة بها ...

مرَقتُ من بابِ العمارة ، واتجهتُ إلى السيّارة فلمحتها قابعة في مكانها الذي تركتُها فيه ، وكانت من السياراتِ الصغيرة ذات المقعدَين ...

صعدتُ فيها على عجل ، وسرعان ما أدرتُ مفتاحَها ، فانطلقتْ تطوِي الطريق ... وكانت حفلةُ الليلةِ تستغرقُ تفكيري كلَّه : ماذا هو مقدّرٌ لمحاضرتي ؟ كيف يكونُ وقعُها على الأسماع ؟ ... وكنت قد أبقيتُ معطفِيَ الأسودَ على المقعَد الآخرِ من السّيارة ، فلمحَته عيني في مكانه . واجتزتَ شارعَ « إبراهيم باشا » ، وما إن أشرفتُ على شارعِ « الملكة نازلي » ، حتى أيقظتني من أحلامي حركةٌ صادرةٌ من

ناحيةِ المعطف . فالتفتُّ التفاتة عَجلى فإذا المعطفُ على حالةٍ ولكنى مالبثتُ أن سمعتُ حركةً أخرى أشدَّ وقعا ، فوجدتنى أخفف من سرعة السيَّارة وأحدِّقُ بجوارى مستطلعا فإذا بالمعْطَفِ يتحركُ ، ففَزِعتُ وهاجَمتنى الظنُّون ، فوقفتُ السيارةَ مهتاجَ النفس ، وأضأت المصباحَ على الأثَر ، وظهرتْ فى الحال يدانِ من المعطف بساعدَين بيضاوين . فتحفزْتُ فى حذَر وقد توجستُ شرًّا ، ولم أكدْ أفتحُ فمى متسائلا ، والذهولُ يملكُنى ، حتى طالعَتنى وجهُ حسناء . وإذْ بى أسمعُها تقولُ :

إلى أين تريد أن تذهبَ بى ياسيدى ؟

فبادرتُها بقولى ، وعيناىَ محلقتان :

من أنتِ ؟ وماذاجاء بك إلى السيَّارة ؟

ووجدت الفتاةَ تستوى فى جِلسْتها ، وتُنحِّى عنها جانبا من المعْطَفِ الذى كان يُخفيها ، وقالت :

معذرةً إذ اتخذتُ معْطَفَك لى غِطاء بعضَ الوقتِ ... أردتُ أن أتقىَ به بوادر البرد !

وتبادرَ إلى ذهنى أنها حِيلة تبغى بها إحدى الغوانى معابثتى ، فقلتُ فى شىء من الخشُونة :

ما شأنكِ ؟ تكلمى ... وقى أثمن من أضيِّعه فى مثل

هذه المهازل !

فرمتنى بنظرةٍ يتجلىّ فيها أسفٌ وعتاب ، وراحتْ تصلحُ من هِندامها ، وتصفّف شعرَها واستبان لى أنّ وسامتها يكسوها ظل من الشُحُول والامتقاع . وأنها لم تعن بزينتها ولكنها مع ذلك ذاتُ فتنة ظاهرة . وقد استرعى انتباهى على الفور لونُ شعرها، إذ كان متميزاً بحُمْرَته القانية ، مسترسلاً على كتفيها متموّجاً يبهرُ النّظر ... وسمعتها تهمهم :

إنه لاتّفَاقٌ غريبٌ ذلك الذى جعلنى أدخلُ سيارَتك . ثقْ أنى لم أتعمدْ ذلك . كانت أولَ سيارة واجهتنى فد خلتها . لم يكن من ذلك بدّ ... وأنتَ الآن بين أمرين : إما أن تسمحَ لى بالنزول ، وإما أن تبلغنى دارى . ولك بملءِ حريّتكَ أن تختارَ أحدَ الأمرين ..

وكانت تتكلمُ فى أدب ظاهر واحتشام ، بلهجة تنطوى على أنفة واعتداد بالنفس .. وأزاحتِ المعطفَ كله عنها ، فإذا هى فى لبوس المنزل : رداءٌ حريرىٌ سابغٌ سماوىُ اللون ، رشيقٌ على الرّغم من سذاجته . ولاحظتُ أنها عاطلٌ لا تتحلىّ بشىء .

وقد فطنتْ إلى دهشتى لما هى عليه من زىّ ، فقالت وعلى فمها ابتسامة مهمَلة :

حتى الحـــذاء لم ألبسه كما ترى ... انظرْ ... خرجتُ

بخفّ المنزل !

وحرّكتْ قدميها لتريني الخفّ . ثم واجهتني بقولها وهي تعالج فتح بابِ السيارة :

سأتركك يا سيدي ... شكراً لك على أيةِ حال !

وكانت عيناها سوداوين عميقتي التأثير ، تزخران بعواطفَ غامضة على الرغم مما يلوح عليهما من إعياء وجهد . واستهواني صوتها الموسيقيُ ذو الرعشةِ المحبّبة والغنّة الآخذة ، ذلك الصوتُ الهادىء الطبيعي الذي ينسابُ إلى أعماق النفس فيثيرُ فيها شتى الأحاسيس .

وجعلتْ تبحث عبثاً عن مقبض الباب ، فقلت لها :

ليس للسيارة إلاّ مدخل واحد ، هو الذي يليني ...

ـ إذاً أرجو أن تفسحَ لي .

ونظرتُ إليها مليّاً أتأمّلها ، ورأسي تطوفُ به أفكارٌ متضاربة . ثم وجدتني أطفىءُ المصباحَ ، وأدير مفتاحَ السيارةِ على مهَل تخطتْ بنا خطواتها الهيّنة ، وسمعتُ الفتاة تقول :

لماذا لم تدعني أبرحُ السيّارة ؟

ـ لقد اخترتُ الأمرَ الآخرَ ... سأبلغُكِ داركِ ... أين تسكنينَ ؟

ـ مصر الجديدة .

— هى وِجْهتى أنا أيضاً ...

— كيف ؟

— إنى أطلبُ النزهة واستنشاقَ الهواء الطلق .

— ولكن يا سيدى ...

— لا أستطيعُ أن أدعَ سيدة فى عَرْضِ الطريق وهى فى لبوس المنزل .

— لا بدّ أن شتى الهواجس تتنازَعك فى شأنى .. . امرأةٌ فى هذه الساعة . فى سيارتك على غير مَعرفة ، فى لبوس المنزل ...

— لا أخفى عنكِ دهشتى ! ... ولكننى قليل الفضول ... تستطيعينَ أن تصونى سرّك عنى !

— أشكر لكَ ... كلُّ ما أريدُ أن أخبركَ به هو أن تثقَ بحسنِ نيتى .

— لم يسُؤْ بك ظنى .

— ولِمَ هذه الثقة العاجلة المرْتجلة ؟

فابتسمتُ وأنا أحرّكُ فى يدى عجلة القيادَةِ ، وقلت :

الحقُّ أنى لا أدرى لماذا !

— ألا تخشى أن تكونَ مخطِئاً ؟

— أرجو ألا أكُونَه ... !

ومضت السيارةُ تخترقُ شارعَ « الملكة نازلى » فى سَيْرٍ

تَوئيد ... كان الهـــواء رُخاء يحمل في أطوائه تباشير الشتاء بنشاطه وانتعاشه . وكان الليلُ ساجياً والطريقُ يكادُ يكونُ خالياً إلاّ من بعض سيّارات الجيش الضخمة تمرُّ بنـــا في جلبة وضجّة فتزلزلُ لها سيارتي الصغيرةُ ، ثم لا تلبثُ السكّينةُ أن تُخيّمَ على جانبي الطريق ... وتولانا الصمتُ وقتاً . ورُحتُ أفكّرُ في أمرِ هذه الفتاةِ التي رمانى بها القَدَرُ في تلك الساعة :

ما شأنها ؟ أمنَ الغانيات هي ؟ أمِنَ الأسرِ الكريمة ؟ أمنْ تلك الفتياتِ اللواتي نُسميهنّ «أنصاف العذارى» ؟ هل قصدَتْ سيارتي قصداً ؟ ... وسمعتها تقطع عليّ تفكيري كأنها تحدث نفسها :

ألم تحرزْ نصراً في حياتكَ تعتدُ به ياسيدى ؟

فقلتُ :

لم تخلُ حياتي من ساعاتِ نصر ...

— أقصدُ نصراً حاسماً ، كأنك خُضتَ معركةً دامية كان لها أثرٌ فاصلٌ في حياتِكَ ، معركةً خرجتَ منها وأنت تشعُرُ بأنك دفنتَ عهداً مُدْبِراً ، واستقبلت عهداً جديداً ...

— لا أدرى على وجه التحقيق .

— أما أنا فقد نلتُ هذا النصرَ ، نلته الليلةَ ، ياله من نصرٍ عظيم !

كانت تقول ذلك بلهجة ملؤها الزّهْوُ والاعتزاز . وبعد لحظةٍ واصلتْ حديثها قائلةً وهي تحدّق أمامَها تحديقاً ثابتا :

إنّ ثمّةَ لذةً لا تفوقُها لذةٌ أخرى ، هي تلك الوَقفةُ التي يقِفُها المحاربُ وقد سقطَ خصمه بين يديه صريعا . ذلك الخصم الذي طالما ناوَأهُ وأعياهُ وأذله .. إنها لنشوة عجيبة ، وإنه لشعورٌ عظيمٌ حقا .. كنت أنكر على المقاتلينَ قسوتهم وأنعى على الحروب وبلاتها ، ولكنني حينما خضتُ معركتى ، ونلتُ فيها نصرى : — عذرت كل مقاتل سَفاك !

— يدهشنى أن أسمعَ ذلك الرأيَ من مثلك ... المرأة ينبوع الشعورِ المرهف ، ومستودع الرّحمة والحنان !

— الطبيعة الإنسانية لا تختلف بين الرجل والمرأة ...

— قد تكونُ الطبيعة واحدة بين الجنسينْ ، ولكنني أراكِ تَعْسُفِينَ فى التعبير عن هذا الشعور ...

— لو كنتَ يا سيدى ممن يخوضون المعارك الدامية ، ويمارسون المقاتلة والصراع : — لما رأيت فيما أقول شيئا من المغــالاة ...

— إننى أخوض معارك الدماءِ منذُ أمَدٍ ... ولكنْ فى صورة خاصة !

— لستَ بجندى على ما يلوح لى ! ؟ ...

— لا صلةَ لى بالجندية .

— هل لى أن أسألكَ إلى أيّةِ الهيئـــاتِ الاجتماعيةِ تَنتَمى ؟

— إلى الهيئة التى يلقبها الناس بجزارى بنى آدم الذين يحميهم القـــانون !

— أنت إذن جرّاح ..

— أصبتِ !

وانطلقتْ منها ضِحكة رقيقة ، فقلتُ لها :

أقدّم لك نفسى : دكتور شهدِى ، عيادتى فى العِمارةِ التى على بابها أضافتك سيارتى المتواضعة ...

— تشرفتُ يا سيدى الدكتور .

وكنا قد شارفنا « منشية البكرى » وازداد الطريق إقفاراً ، وتغلغل فيه الصمت والسكون . وتتابعت نسمات الليل تهب علينا باردة منعشة . ورأيت جارتى تتحسس معطفى وتدس يدها فى طياته فقلت من فورى :

ألا تنيلين هذا المِعطفَ المسكين شرف تَدَثُّرِكِ به مرة أخـــرى ؟

— أشكرُ لكَ هذه العاطفة يادكتور ! ...

وبادرتُ بيسطِ المعطف عليها ، وإذا بهـــا تقولُ :

ألستَ الدكتور عبد الحميد شُهدى ، صاحب المباحث الطبية التى تطالع بها الصحفَ بين حين وحين ؟

— قد أكونُه !

— قرأت لكَ فى الأهرام منذُ أيام بحثَك فى الملاريا ، ووجدت لك فى مَجلّة الحكمة هذا الشهر بحثَك فى البنيسيلين وأثره فى الجراحات ، وأذكر أنى قرأت لك منذ أشهر نصائحك فى التعقيم ...

— عجباً ! ... أتنا بعين أمثال هذه المباحث الجافة ؟

— لى بالطبّ ولع ... أتسمح بأن أقدم لك نفسى : « سميرة عزت » ، وانتسابى إنما هو لأبى ...

— أكانَ لك أن تنتسبى لغير أبيك ؟

— كان لى زوج ... يرحمه الله !

— أماتَ منذ مدة ؟

— دفنته الساعة !

— الساعة ؟

— دفنتُهُ ونفضتُ منـــه يدى ، ونزلت فاستقبلتْنى سيارَتُكَ . . .

— سيّدَتى ؟ !

— لقد صرعتُ هذا الزوْج وانتهيت من أمرِه .

ـــ إنها لألغاز !

ـــ ألم أقل لك إنى نلت نصراً حاسماً ؟ ما زلت أتمثله وهو صريع أمامى ... انتهى .. انتهى كل شىء !

وصمتَتْ ، فقلت مدهوشاً : أفصحى ...!

فقالت فى لهجتها ذات الرعشة المنغمة :

إنه قتيـــل فى نظرى ، أما فى نظره فليس يهمنى أن يعتبر نفسه حيا ...

فتنفستُ فى ارتياح ، وواصلتْ هى حديثها :

أمر لا يؤبه له ... إنها خِز عبلات الحياة . لنعد إلى قصة الطب . أرغب فى أن تَعلم أنى من أسرة جُلُّ رجالها أطباء ... كان جدى طبيبا ، أحمد عزت باشا ...

ـــ الدكتور أحمد عزت باشا ؟ ... من يجهل هذا الاسم ؟ ... إن نظرياته الصائبة فى جراحة العين غزت معاهد العلم فى أوربة ، وحظيت بأكبر تقدير ...

ـــ وعمى كان طبيباً فى الجيش ، ولى أخ أتم دراسته فى كلية الطب المصرية ، وهو الآنَ فى لندن يتخصص فى جراحة العظام ... فلا يأخذنكَ العجبُ إذا وجدتنى أهوى الطبَّ وما يتصلُ به ... إنى أعيشُ محوطة دائماً بأدواتِه : مشارط ، محاقن ، ضمادات ... أننى مشبَع أبداً برائحةِ العقاقير ، حتى إنى لأشعرُ بأن الهواء الذى

أستنشيقه يحملُ من ذرّاتها أوْ فرَ قصيب !

وطفقتْ تستنشقُ الهواء حولها مِلءَ رئتيها . ثم عادتْ تقولُ :

إنى معجبة ببحثِك الأخير فى الملاريا ... لقد طالعته غيرَ مرّةٍ .

— حقًّا ؟

— إن طريقتكَ فى تبسيط العلم بذلكَ الأسلوب السهل المحبّب لايجاريك فيها طبيبٌ آخر .. كنتُ أقرأ هذا البحث فكأنى أستمتعُ بقصّة طريفة ... هذا فضلاً عما يتجلّى فى مباحثك من نزعة إنسانية كريمة ...

— أنى لجدُّ مغتبطٍ بإطرائكِ هذا ، ولكن يلوح لى أن ...

فقاطعتنى كأنها غيرُ معنيَّةٍ بقولى :

لما عرَفتكَ الساعة تبينَ لى على الأثر وجهُ الصلةِ بين شخصكَ وبين ما تخطه أناملكُ ... إن مباحثك لمِرآة صافيةٌ تتراءى على صفحتها المصقولةِ صورة نفسك فى جَلاء ...

— سيدتى ، إنك تغمريننى ...

فتابعتْ قولها كأنها لم تسمعنى :

إن الكاتبَ ليظلُّ مجهولا كل الجهل عند القارىء ، مهما يقرَأ ، فإذا ماتعرَّفَ به ...

— وَقعتِ الكارثة !

ـــ فإذا ما تعرّف به رأى القارئ نفسَه تجاهَ حالتين،فإما انهار ذلك الصرْحُ الشامخ بما يحويه من فتنة وسحر، انهيار ألا قيامَ بعدَه، وإما أن يزدادَ هذا الصرحُ تمكناً وسموّاً ، وحينئذ تتوثقُ صلة الكاتب بالقارئ، وترتفعُ مكانته عنده درَجاتٍ .

ـــ أهو شعورٌ يشاركك فيه كلْ قارئ ؟

ـــ يُخيل ذلك إلىّ ، وعلى أيّةِ حال فهو شعورى الخاصّ... وقد تعلمتُ منه أن أتجنبَ معرفة من أقرأ لهم ، إذْ طالما مُنيتُ بخيبَةِ أمل قاسية ...

فتنحنحتُ قليلا ، ثم قلت :

ألى أن أعرفَ موقفى فى هذه القضيّة ؟

فتلاعبتْ بطرَف معْطفى ، وقالت : حسْبُك أن تحزُر !

وانتبهتُ ، فإذا « مصرُ الجديدة » تلوحُ أمامى دونَ سابقِ إنذار أو تمهيد،كأن الليلَ الغارقَ فى ظلمته وصمتِه قد انشقّ عنها دفعةً واحدة ، فبدَتْ حيالَ ناظرِى كأنها مدينة مسحورة من مدائن الأساطير .

وهمهمتْ جارتى :

إنى أسكن فى شارع الخليفةِ المنصور .

ـــ أعرفه جيداً،طالما عدتُ فيه بعضَ المرضى،سأبلغك إيّاه...

وسرتُ ووجهتى شارع « الخليفة المنصـــور » ، وأظلّنا

الصمتُ وقتاً ... ورأيت فتاتى تعبثُ بزر من أزرارِ معطفى، وعيناها تحدقانِ أمامها لا تطرفان، وأردتُ مواصلة الحديث، فأعيانى الأمر... وبدرَتْ منى سَعلةٌ خفيفة، وألفيتُ جارتى تقولُ وهى على حالها:

ودِدْتُ أن أجدَ لى عملاً فى الحياة ... إنى توّاقة لأن أمارسَ أيةَ مهنةٍ!

ــ أىُّ عمل تصبو إليه نفسك؟

ــ أقبلُ أىَّ عمل ... أريد أن أشغلَ وقتى ... أملأ ذلك الفراغَ الذى يحيط بى ... أدفع تلك الوَحشة التى تشيعُ فى نفسى!

وكان الهلالُ الوليدُ قد بدأ يلوحُ فى الأفقِ البعيدِ شاحباً ضئيلا يتعثرُ نوره الوجِلُ بين الأبنية الضخمة، فكأنه يحاذرُ أن يكشفَ السِّترَ عن أسرارٍ خليقة بالكتمان ... وانتشرتْ خيوطه الواهية على وجه جارتى فأكسبتها سحرَ الأطياف ... وتسللتِ الأضواء إلى شعرِها القانى سابحة مضطربة على موَجاته اللِّطَاف...

ووجدتنى أقول:

أتحسَبينَ أن المرأةَ للعمل خُلقتْ؟

فقالت:

لأىِّ شىء خلقتْ؟

فأمسكتُ عن الجواب، ورأيتنى أخَففُ من سرعةِ السيارة،

وأتباطأ بها تباطؤاً جعلَ سيرَها أقربَ إلى سيرِ الأقدام ... وخيلَ إليَّ أني آخذُ بيدِ فتاتي أجوزُ بها الطريق مترَجِّلا هيِّنَ الخطواتِ .

واختلجت شفتايَ بقولي :

المرأة لم تخلقْ إلاَّ لأمر واحد ...

ـ وما هو ؟

ـ إنها خلقتْ للحبِّ !

فراعتني منها نظرات ملتمِعَة ، وقالت :

الحبّ ؟ !

ـ الحبُّ وظيفة المرأة ، وظيفتها الأولى في المجتمع ... !

وعلا صوتها أكثرَ من ذي قبلُ وهي تقول :

وإذا كان هذا الحبُّ أصلَ بلائها وجحيم حياتها ، لم تنل منه غيرَ الخيبةِ والإذلال : فماذا تصنعُ ؟

ـ تبحثُ عن حب آخَرَ .. حُبٌّ جديد يحلُّ محلَّ الحبِّ القديم ويطاردُه ... لا يفلُّ الحبَّ غيرُ الحبِّ ! ... ألم تسمَعي قولَ الشاعر :

وداوني بالتي كانت هي الداء ؟

فتضاحكت في رفق ، وقالت :

وإذا أصابَها الإخفاق في حبها الجديد ؟

ـ تبحث عن سواه !

ــ وهكذا ... ؟ !

ــ نعم ... الحبُّ ... الحب دائما ... الحبُّ في حياة المرأة عنصر لا يقل خطراً عن الماء والهــــواء ، بل إنه ليفوقهما ... إنه عنصرُ الحياةِ الأوَّلُ ! ...

ــ إني لأراه عنصراً من عناصر الدمار ... إنه جرثومة مرض خطير فتاك !

ــ هبيه مرضا .. هبيه أي شيء آخر ... هو في نظري ألزم للمرأة من أي شيء !

ــ تُرِيدُنَا أن نكون دائمًا صَرْعَى هذا المَرضِ العُضال ؟

ــ إن لبعض الأمراض تأثيراً سحريا في النّفْس فتنجذب إليها وتشغف بها، ولا ترضى عنها بالصحة بديلا ... والحب مرض ساحرٌ جميلٌ يضفي على حيــــاة المرأة لونا بديعا أخاذاً ... إنه ليدفعها إلى الأخذ بطراز رائع من العيش ، كله « رومانسيّة » وفتنة ... لن تصيب المرأة كل هذه المتع وهي مكتملة الصحة في رحاب الواقعية المبتذلة !

فلاذَتْ بالصّمْتِ هُنَيْهَةً ، تائهةَ النظراتِ حالمةً ، ثم همهمت :

يبدو لي أنك شديدُ الإيمان بالحبِّ !

— بل إنى لشديدُ الإيمـــانِ بأن المرأةَ لم تُخلَق إلا للحبّ ! .. إنها دُميَةٌ فاتنةٌ فياضة القلب بهذه العاطفة النورانية الوضّاحة ... إنها ...

فقاطعتنى بصوتها المنغّم الهادىء قائلة :

أنتم أيها الرجال تريدونها تماثيل « عواطف » لا أكثر ولا أقل ، تنصبونها فى أبهاء منازلكم لتفزعوا إليها إذا استبد بكم الضيق ... !

— بل ننصبها فى أعزّ مكانٍ وأعلاه قدسيّة وطهارة ... ننصبها فى قلوبنا !

إنكم لتمرّون بهذه التماثيل لتُرْوُوا منهـــا نفوسكم الصادية ، وتُشبِعُوا نظراتِكم المنهُومَةَ . ثم لِتتّخِذُوها أفكوهة وسلوى ...

— بل لنخر لها ساجدين ضارِعينَ !

— كلامٌ معسول ... إنّ الأنانية لتحتَلُّ من حياتِكُم أكبرَ مكان !

فأرسلتُ طَرفى إليها متفحصا ، فوجدتها هادئةَ القسِماتِ ، غارقةً فى عذوبة فياضة ، وقد أسبلتْ جفنيها ؛ كأنها مقبلة على نعاس خفيف ... فقلتُ فى شبه همس :

أأعدُّ نفسى ضمن من تعنين من الرجال ؟

فتخايلتْ على وجهِهـا ابتسامةٌ رقيقـــة ، وتحركَتْ

شفتاها وهى تقول :

وهل أنتَ إلاّ رجل ؟

ـــ أذكر أنى سَمِعتُكِ منذُ قليلٍ تشهَدِين بأنّ فىْ نزْعةً إنسانيّة . . .

فتضاحكتْ . واندفعتْ تعبثُ بزرٍّ من أزرار مِعطفى ... فقلت:

حذار يا سيدتى أن تقطعى الزِّرّ . . إن مثل هذه الأزرارِ عزيزُ المنالِ فى الوقت الحاضر !

ـــ لن ألحق ضرراً بمعطفك . . سأترِكه لك كله .. ألم نبلغ بعد شارعَ الخليفة المنصور ؟

وتلفتتْ حولَهـــا مَليا ، ثم همهمت :

أحسَبُنا قد تجاوَزْناه . .

ـــ يبدو لى أنّ الخليفةَ المنصورَ غـــيرُ متعجّل أن يَستضيفنَا . . . !

ـــ ألا تعودُ بى ؟

ـــ حتما . . .

ووقفت السيارة ، ونزلت . . .

فقالت :

ماذا ؟

ـــ على ربّانِ السفينة أن يَتَبينَ مكانه من المنطقة التى حَل

فيها لكى يستطيع أن يعود أدراجه فى أمان ...

وأدرتُ عينىَّ حولى ، فإذا نحنُ على أبوابِ طريق « السُّوَيس » ... وتجلّت لى عظمةُ الصحراءِ المترامية الأطرافِ التى لا يحدها النظر ، الصحراء العظيمة بسكونها السابغ ورمالها المنبسطة تحت ضوءِ الأفلاك ، كأنها بسط من اللجين موشاةٌ بثمينِ اللؤلؤ ... ومصرُ الجديدةُ رابضةٌ على مرمى البصر كأنها حيوان ضخم من الحيوانات المنقرضة فى العصور القديمة دهمه النعاس ، فتجمع بعضه على بعض ...

وشاهدتُ فتاتى تترك السيارةَ وتقول :

ماذا تقصدين بوقفتِك هذه ؟

فتطلعتُ إليها أتأمّلُها لحظة ، مُعجباً بقوامها اللدن ... لم تكنْ بالفارِعَة ولا بالقصيرة ، ولم تكن بالبدينة ولا بالضّامِرة .. عود خصبٌ ريّان ، وجسمٌ متناسق التكوين ، لا تنكر العين منه شذوذاً ولا هُجنة .

وراحَ الهواءُ يهاجمُها فى عنف ، ويضرم الثورةَ فى شَعرِها وملابِسها ، فانبعثَتْ جاهدةً تصلحُ من شأنها وهى تقولُ :

أين نحن الآنَ ؟

— عن كثبٍ من السويس ...

فصاحت :

الشُّوَيْس ؟

ـ أقصدُ أننا منها على بُعْدِ ساعتين ... !

واشتدَّ عبثُ الهواءِ بها ، فهُرِعتُ إلى السيَّارةِ ، وسرعان ما عدت حاملاً معطَفِي وقلتُ :

أطلب إليك باعتباري طبيباً أن ترتدي المِعطَفَ ...

فلم تُبدِ اعتراضاً ، وساعدتها على ارتدائه ، وكان سابغاً فضفاضاً فتهدَّلَ كُمَّاهُ على يديْها . فكركرَتْ في الضحك ، وهي تدور على عقبيْها تتأمَّل نفسها وتقول :

ليس في الإمكان أبدعَ مما كان ... !

ـ في رأيي أنه منسجم عليك أبدعَ انسجام ... كأنكِ في لبوس المحاماة ترسلين دفاعك على مَنَصَّة القضاءِ ، أو في جُبَّة الأستاذيَّةِ تُلقينَ محاضرتك في مدرَّج الجامعة !

وأخذت بيدها ، وسِرْنا متمهلين ، ورأيتها تطوِّف ببصرها متوسمةً ، واستقرتْ عيناها على القمر الفتيِّ يحاول في جَهد أن يبدِّدَ حلوكةَ الليل وهينمتْ :

إن الحياةَ ليست كريهةً كما تبدو للإنسان بعض الأحيان ... إنها تنطوي على جوانب لطيفة !

ـ هي ملأى بالسعادة لمن يريد أن يكونَ سعيداً ...

ـ وهل يكفي أن يرغَبَ الإنسان في السعادةِ لكي يظفر بها ؟

— نعم ، هذا رأيي . وأرجو ألاّ أكون فيه مخطئاً ...
— لقد حاولتُ فلم أصِبْ منها شيئاً على الإطلاق .
— لِمَ تكونى فى رغبتِك مخلصةً

فطمَحَتْ بعينيها إلىّ ، وقالت :

قد فعلتُ المستحيـــلَ . . . ثم مالت ببصرها عنّى ، وأطرقتْ شاردةَ الفكر برهةً ، ولمحتُ قطرَاتٍ من الدمع تنتثر على صفحةِ خدّها ، وألفيتها بغتةً تُخْفِى وجهها فى منديلها ثم أخذت تجفف دموعها عجلة ... وتَدَانَيْتُ منها وأنا أقولُ فى صوتٍ رفيق :

لقد حدّثْتِنِي الآنَ بانتصارٍ باهر نِلْتِه فى معترَكِ الحياة ، فكيف يَبْكى القائدُ والنصرَ حليفه ؟

فهمستْ بقولها :

يستوِى النصرُ والهزيمةُ فى نظرِ من كان مُوحِشَ القلبِ فارِغَهُ . . . الدنيا التى تتجاوَبُ فيها الحركةُ والنُّورُ ليست فيما أحِسُّ إلاّ صحراءَ مقفرَةً داجِيَةً !

فلاطفتُ يدَها وأنا أردِّدُ مبتسما :

ألم أقلْ لكِ : وداوِنى بالتى كانت هى الداءُ ؟

فتوهجتْ عيناها ، وقالت متهدّجَةَ الصوت :

أحسبتَ أنى ما برِحتُ أحبُّه ؟... محَالٌ أن يكونَ فى

قلبي ذرّةٌ من هذا الحبّ !

وراحتْ تُرسل النظَرَ أمامَها ، وهى لا تَنْبِس .

وبعد حين وجدتها تهمهم :

إنى لأعجبُ كيف أحببتُه يوماً ؟ كنتُ غريرَةً طائشةً . . استهوَانى بمعسول الأحاديث وخلابِ الأمانى ، فوَثقتُ به ... وثقت ثقةً راسخة ... وكان الزواجُ ... وتوالتْ أيامُ صفاء وهناء ، وما هى إلاّ أن تبعتها أيامُ محنة وشقاء ... انقلب هذا الزوجُ الصّفِيُّ مخادعاً أثيماً متغلغلاً فى الإثم والخدَاع . . . أصبحت حياتى معه جحيماً لا يطاقُ فيها العيش .. ورَضِىَ أخيراً بالطّلاق ، بعد أن بذلتُ له فى سبيله أسخى العرُوض ، وهو يسرف فى مساومة دلتْ على خسّة وضعة نفس ... كان هذا الذى نسمّيه « الحبّ » أو على الأصحّ هذه الجرثومة الخبيثة تنفثُ فى دمى سمومَها ، فلبثتُ حيناً أروضُ نفسى على الخلاَص من شرّها ، فتارةً أوفقُ وتارة أخفقُ ، حتى لقد عنّ لى فى ساعة من ساعاتِ يأسى شبحُ الانتحَارِ يستدْنينى إليه ، فكدت أسقطُ بين برَاثنه ، وقضيتُ فترةً كلها كفاحٌ وعناء ، حتى وقعت حادثة اليوم ، فكانت ختامَ المأساةِ وفصلَ المقال ...
ثقْ أن كل شىء قد انتهى الآن ! ...

— أو علىَ وشكِ الانتهاء ! ...

— بل انتهى كل شىء إلى غير رجعة ، تصور أنى تلقيت منه اليوم بطاقة صغيرة خط فيها كليمات مفادها أنه مريض مشف على الموت ، يطمع أن أزود عينيه بنظرة وداع...وقلبت البطاقة فى يدى لحظة ... مريض يلفظ أخريات أنفاسه يدعو مطلقته إلى أن تودعه الوداع الأخير ... لست بالقاسية حتى أمتنع عن تلبية دعوته فى هذا الموقف الحرج ... مازال قلبه عامراً بحبى ... لمعت هذه الخواطر فى رأسى فوجدتنى أقفز نحو الباب دون أن أفكر فى تغيير ثيابى ... وصعدت فى أول سيارة لقيتنى ، وحثثت السائق ليمضى سريعاً إلى البيت ، وكنت فى السيارة وهى تعدو بى ألوم نفسى على ما قد بدر منى فى حقه . أقسوت عليه كثيراً ؟... أعاندته طويلا ؟ ... أما كان أجدر أن أصابره وألاينه ؟ ...

وصعدت إليه مبهورة الأنفاس ، ودخلت حجرته ، فماذا تظن أنى رأيت ؟

— ممدداً على سريره يعانى سكرات الموت .

— بل فى منامته الحريرية الأنيقة يتوسط حجرته ، مشرق الطلعة يتوقد مرحاً ويقظة ، وعن كثب منه مائدة تتزاحم عليها أكواب الشراب وصحاف الطعام ، وتقدم منى ثملا يتخلج والكأس فى يمينه ، وقال لى :

« ها قد حضرْت .. » ، ووقفتُ مصعوقة لا أبدى حركة ، ولا ألفظُ حرفاً . واستأنفَ قوله :

« اجلسى ، اجلسى ، إنك مجهودة . ما أشدّ حبك لى ! »

ولما وجدَنى جامدةً فى مكانى أنظرُ إليه مأخوذة اللبّ . اقتربَ منى وأمسكَ بيدى ، وأقبلَ علىّ ، وأحسستُ أنفاسه المخمورةَ تصافحُ وجهى ، وفمه المتدلى يتدانى إلى فمى ووجدتنى بغتةً وقد ارتفعتْ يدى وأهوتْ عليه بصفعة اختلجَ لها وترنّحَ وطارتْ الكأسَ من يده ... وحدّجته بنظرةٍ نكراء ، وصحتُ به :

« إنى أكرهكَ ... أمقتك ... من تظننى أيها النذلُ ؟ »

والتفتتْ إلىّ ، وكأن عينيها بقعتَا دمٍ فائر ، وقالت :

أقسم لكَ إنه لو كان معى حينئذٍ سلاحٌ لقتلته شرّ قتلة ! ... لقد خرجت أعدُو من مسكنه لا أكادُ أستبينُ طريقى ، وصادفته سيارتكَ فدخلت فيها على الأثر ، ثم انكببتُ على يدى أبكى ... وأبكى ... وأبكى .. وتخاذلتْ قوَايَ ، وخدِرَتْ أعصابى ، وأحسستُ بالغفوةِ ، تسرى فى أوصالى ! ...

وسرتَ معها جنباً إلى جنب . دون أن نتناقل الحديثَ . وبعد هنيهة ألقيتُ عليها نظرةً فإذا هى تعبثُ بين أصابعهـا بحليةٍ مشبوكةٍ فى صدْرها ، فهمستُ :

حليةٌ لطيفة !

— لا بأسَ بها . . .

وخلعتُها وناوَلتْنى إيَّاها ، فأخذتُ أردد فيها النظر ، وكانت حليةً ذهبية نقشَتْ عليها صورة أبى الهول ، وتحت الصورةِ بضعُ كلمات لم أستطع تبيُّنها . فقالت :

مكتوبٌ فيها : « تذكارُ لمتطوِّعاتِ الملاريا » . . . لقد مَنحَتنى هذه الحليةَ لجنة فتاة النيل تقديراً لعملى فى جمع التبرُّعات .

— أكنتِ فيمن يجمَعْنَ التبرعات ؟

— جمعت وحدى مائتىْ جنيه !

— كثيراً ما حاصرنَنى هؤلاء المتطوعاتُ وسَلبننى ما فى محفظتى من نقود . . . أكنتِ من هؤلاء السارقات ؟

— يجوز !

— بل أؤكدَ ذلك ! . . .

— كيف تؤكدُ ؟ . . .

فصمتُّ برهة ، وأنا أحدِّقُ أمامى ، وقلت فى لهجةٍ لينة خافتة : على أيةِ حال ، أشعرُ شعوراً قوياً بأنك سلبْتِنى شيئاً !

— أتعنى محفظتَك ؟

— بل شيئاً أغلىَ وأعزّ . . .

ورنوتُ إليها ، فرأيتُ ابتسامةً هادئةً ترفُّ على محيَّاها ، ومدّت يدَها إلىّ ، وقالتْ :

هاتِ الحليةَ ...

فناولتها إياها ، فشبكتها في مكانها من صـــدرها ، فقلت :

يظهر لى أن كلاً منّا مهتمٌ بالملاريا . . إن هدفاً من أهداف الحياة قد بدأ يجمعُ بيننا ويؤلّف ! ...

فعادت تعبثُ بحليتها ، وهى تقولُ :

إن للملاريا جرثومة أرجو يا صديقى الدكتور أن نكون بمنجاة منها ! ...

فألفيتُ نفسى أندفع قائلا :

لقد كشفَ الطبُّ حديثاً أن لجرثومةِ الملاريا فضلا فى القضاء على جراثيم بعض الأمراض المستعصية...

فأجابت خافضة الصوت وهى تنظرُ فى حليتها وتعبثُ بها :

أتظنُّ أن جرثومتك الخاصة بالملاريا قادرة أن تقضىَ على مرض عضالٍ كاد يودى بحياة ؟ !

— إنى باعتبارى طبيباً تعمّقتُ فى دراسةِ هذه الناحية ، وباعتبارى أيضاً صديقاً تنطوى جوانحهُ على إخلاصٍ وثيق .

أقولُ والأملُ ملء قلبى :

سيتحققُ ذلك بلا ريب !

فرفعتْ عينيها إلى ، فلمحتهما نديتين ...

فأخذت يدَها بين كفيَّ وجعلتُ ألاطفها، وعينايَ لا تفارقانِ عينيها ...

وتشابكتْ نظراتنا وقتاً ، ونحن صامتان ...

وإذا بي أميلُ بفمي على يدِها ، فأودِعُهـا قبلةً حافلة حرى ! ...

حُكّام من السماء

ماذا يكونُ مِنْ أمر العالَمِ لو خلا من الرجلِ وانفردت به المرأة ؟

وماذا يكونَ من أمرِه لو خلا من المرأةِ وانفرَدَ به الرجلُ ؟

طُلِبَ إلىّ أن أجيبَ عن هذا السؤالِ ، فأدَرْتُه في خاطِرِي بُرْهَةً ، ثم شُغِلتُ عنه ، فلما احتَوانِي عالم الكَرَى ، رأيت فيما يَرَى النائمُ أني في عَهْدٍ من عُهُودِ الفراعنة سَحيق ، وأن أحدَ الكَهَنَةِ في «مَنْف» ، قد أقبلَ يَقُصُّ عليّ حديثًا عَجَبًا . فأنا أرْوِيه هنا كما وَعَتْه مسامِعي :

قال الكاهنُ الفِرْعَوْنِيُّ :

« زعَمُوا أنه في غابِرِ الزمانِ المتغلغلِ في الأزَلِ ، حين فرَغَ أبو الآلهةِ « رَعْ » من خَلْقِ الأرض ، ألفَاها تَميد ولا يَقَرُّ لها قَرَار ، فأجواؤُها تعجُّ بثورةِ العناصر : أهْوِية تعصف ، وحُمَمٌ تنفَجِر ، وبِقاعٌ تنخَسِف ،

وأخرى تتسامق . فاستوى أبو الآلهة على عرشه يُدبّرُ الأمر،وقد توّجت رأسه سُحُبٌ متألّقةٌ يَبْهَرُ ضوؤُها الأنظارَ،واسترسلت لحيتُه الشهباءُ على الأكوانِ كأنها مظلّةُ الأمان، فأخذ يُمشّطُها بأصابعه الفضّية الشفّافة فتنتثرُ منها نجومٌ برّاقة تتهاوى فى السماء . وراح يسرّح بصرَه فى الفضاءِ الأكبر، حيثُ الكواكبُ المترامية تلتمعُ فى خشية وتهيُّب .

وكان « رَعْ » قد أقامَ على كلّ كوكبٍ منها إلهاً من عشيرته الذكور والإناثِ .

واستقرّتْ عينه بعد طَوْفةٍ شاملة، على كوكبٍ صخريٍّ صلد، فصاح « رَعْ » منادياً :

يا شتاء ! ...

فاختلجَ الكوكبُ، وقذفَ بحاكمه « شتاء » بين قدمَيْ أبى الآلهة، وكان إلهاً ضخم الجرم صُلبَ العودِ شديدَ الأركان . يلتحفُ عباءةً ثلجيةً فضفاضة ويبدُو على وجهه شاربٌ غليظٌ من جليد متحجّر. فأمره « رَعْ » أن يخفّ من فوره إلى الأرض وأن يُخمدَ ثورتها ويحكم أمرَها ، فحنا « شتاء » رأسه إجلالا وطاعة، وانطلقَ يعدُو فى الأفق هابطاً إلى الأرض، فكانت تهتزُّ عباءته فى هبُوطه، فتتساقط منها جنادلُ كالجبال يسمعُ لها

هدير صخاب .

ومس « شتاء » الأرض ، وبدأ تجواله فى مناحيها : يخطو خطواته الثقيلة الفساح ، ويصيح صيحاته المدوية العاتية ، فتنكمش العناصر الثائرة ، وتذعن لسلطان الحاكم المسيطر .

وتابع « شتاء » خطوه هنا وهنالك وهو يلوح بيديه يمنة ويسرة . فإذا بأديم الأرض يغشاه البياض ، وإذا بهذا البياض يتكاثر ويتكاثف طبقات بعضها فوق بعض . و « شتاء » يوالى سيره ، وقد ساخت قدماه الضخمتان فى هذه الطبقات . وأراد أن يركن إلى مكان يستقر فيه بعد أن اطمأن إلى أن الأرض قد خمدت ثورتها وشاع فيها الأمن والسكينة . فطوف ببصره حوله ، فألفى قمة جبل شامخ متميزة بين قمم الجبال ، كأنما أعدت لتكون عرشه المختار ، فتسنمها وجلس عليها جلسة الفاتح المنتصر . وطال مكثه على رأس الجبل لا يبدى حراكا ولا تطرف له عين ، على فمه ابتسامة ثابتة جامدة ، ابتسامة زهو وكبرياء …

وتقضت متون من الأحقاب لا ندرك مداها ، ورزح على الأرض صمت راكد موئس ، وأظلتها عتمة كدراء موحشة ، وانكمشت الأرض متقلصة مقشعرة كأنها تريد أن تحتمى من ذلك الزمهرير الذى ضرب عليها رواقه ، واختلجت اختلاجة شديدة وهمهمت :

إنه الموتُ ... الموتُ الوشيكُ !

وعلى حين فجأة، ندتْ من الأرضِ صيحة توسّل وضراعة إلى أبى الآلهةِ «رَع» تبتهل أن يرحمها، وإلا كان الفناء مصيرها وكانت الصيحة تنطوى على جزَع اليائس الذى سُدتْ فى وجهه منافذُ الرجاء، فرق لها قلب «رع». وأوحى إلى «شتاء» أن يرتدَّ إلى كوكبه الذى كان حاكما عليه من قبلُ، فسرعان ما أطاعَ الإلهُ أمرَ مولاه، وغادر الأرض يخترقُ الآفاقَ مجلجلا تهتزُّ عباءته الناصعة الفضفاضةُ فتتساقطُ منها الجنادلُ تدوِّى وتهدِر.

وطوَّف أبو الآلهة «رَع» بطرْفه لحظة فى اللانّهايةِ الأبديةِ، ثم استقرَّ على كوكبٍ كان يتألقَ بنور سندسى، فصاح منادياً :

يا «صيفُ» ! ...

وفى طرفة عينٍ كانت بين يديه غادة هيفاء رائعة الوَسامة، كأنما صيغَ قوَامها اللدْن من لؤلؤ رطب، يتموّج عليه خصلاتُ شعرٍ أملسَ حالك، يتضوّع منه نسيمٌ رضىٌّ فوّاح. فقرأت على وجهِ أبى الآلهَة بسمة رضاً واطمئنانٍ. وهيْنمَ :

أنتِ خيرُ من يحكم الأرضَ !

فأقبلتْ عليه «صيفُ»، تتهادى فى رفق وخشوع، وانحنتْ على يديه، ومسّتْ بشفتيها المتّقِدَتينِ كالجمر أطرافَ أناملهِ

الفضيَّةِ الشفافة . فما أسرَعَ أن أحسَّ الإلهُ الأعظمُ انتفاضة هيِّنة تسري في أوصاله ، فنحَّاها عنه مُتلطفاً وهو يقولُ :

حسبكِ ياصيفَ ... اهبطي الأرضَ بسلام !

وحلَّتْ « صيفُ » على الأرضِ ، وبدأت تجـــولُ على أديمها في رشاقةٍ ولين ، تنقّـلُ خطاها وئيدة مترفقةً ، فتطلعتْ إليها شوامخ الجبال بهاماتها الثَّـلجيَّـة مأخوذة مسحورةً ، وما هي إلاّ أن تسايَلتْ ذائبة من روْعـةِ تلك الفتنة التي لم يكن للأرض بمثلها عهد .

وواصلتْ « صيفُ » سيرَها ، وهي تبْسطُ يديها مرة بعد مرة في هوَادة ولطف ، فإذا بالأزاهير تكسو أديم الأرض ناضرةً بهيجة الرُّوَاء ، وإذا العتمة الكثداءُ الموحشة تلوذُ بالفرارِ أمام أفواج من باهر الضِّياء ، وإذ الماءَ جداولُ تجوسُ خلال المروج الخضر ، وإذا الأشجارُ تتهدَّلُ أغصانها وتورق حافلة بأطيبِ الثمَر .

وابتهجت الأرضُ بهذا العهد الجديد ، فما لبستْ في غابرها البعيد حلةً بهيةً كالتي تبدُوفيها اليومَ وتطلعتْ العناصرُ متشوقة إلى محيَّا « صيفَ » تتملىَّ جمال هاتين العينين الحالمتين تشيعُ فيهما الوَدَاعة والصفاء .

فأما « صيفُ » ، فقد اطمأنتْ بهذا الفوز الذي نالته ، فقصدت

إلى خميلة ظليلة وأعدَّت لنفسها فراشاً من الرياحين، واضطجعت عليه ، وأخذتها غفوةٌ هادئة، وكانت تردد في نومها أنفاساً حارة تنبعثُ من حولها فتذهبَ منتشرةً في شتى الأنحاء .

وطالت غفوةَ « صيف » مئينَ من الأحقاب لا يُدرَكُ مدَاها ، وهذه الأنفاسُ الحارَّة المتلهبةُ ما تبرحُ ساوية لا يخبو لها أوار . ورزح على الأرض ركودٌ خانقٌ ، فأخذت الأشجارُ تصوِّح ،والأزاهيرَ تذوى ، والماء يتبخَّر من وقدة القيظ . وأقبل الجفافُ . . . الجفافُ القاسي يحصُدُ بمنجله كلَّ نبت ، ويمتصُّ عصارة الحياة في كل صقع ، فاستحالت المروج الفيَّاحة يباباً بلقعاً ، فعلىَ مدِّ البصر صحارى ممحلة تتصاعدُ من رمالها أبخرة لا خفة... وثمة الصمت . . . صمت مرهوبٌ يتجلىَّ فيه الفناء ... وأطلت العناصرُ من شقوقها لاهثة عطشى . ولم يبق من ذلك الفردوس الغارب إلا نخيلاتٌ ثلاثٌ تجعدَت بشرتها وانكمشت فطأطأت هامتها تظللَ « صيف » بسعفها اليابس المصفرَّ . وبين الفينةِ والفينة تروِّحُ وجهَ الإلهةِ الحسناء المسترسلةِ في نومها ووجهُها يتلظى .

وصاحت الأرضُ تستغيثُ بأبي الآلهة ، ضارعةً إليه أن يُنقذَها من ذلك السَّعير ، وأن يردَّ عنها حُكمَ تلك الإلهةِ الكسُولِ التى لم تحسنْ من فنون الحكمِ إلاّ أن تُضرِمَ النار ثم

تنام حالِمَةً ... !

واستشاطَ أبو الآلهــةِ غضباً ، واهتزَّت لحيتُه الشهباءُ المسترسلةُ على الأكوان ، فقصَفت الرعُود ، ولَمعَت البرُوق وتهاوَت الشُهب . وعَجِبَ « رَعْ » لهذا الكوكبِ الأرضيِّ الذى لا يَرضى بحال ، وخشَعَت الأرضُ فزَعاً من نِقمَةِ أبى الآلهة ، وانعَقدَ لسانُها لا يَنبِسُ ... فنادى « رَعْ » : يا « شتاءُ » .

وأمرَه أن يَحُلَّ من ساعتِه محلَّ « صَيف » ويستأنِفَ على الأرض حكمَهُ الجبارَ ! ...

وهبطَ « شتـــاء » الأرضَ ، وقد نفش حوله عباءتَه الثلجيَّةَ وفتلَ شاربه الغليظَ المُتحجِّرَ ، فَخُورا تيّاهاً بتلك الثِقة التى أولاهُ إياها ربُّ الأرباب . وجعل يجوبُ ذلك القَفْرَ الرَّحيبَ بُخطَاهُ الثقيلةِ الصُلْبةِ يتلفَّت ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ ، باحثاً عن تلكَ الإلهةِ التى عاثَت فى أرضهِ فســـاداً ، فهَدَّمت ما بَنَى وخَرَّبت ما عمَّر . ومضى فى تجوَالِه وقد لفَحتْهُ شِدَّةُ الهجير ، فألَمَّ برأسه صداع ، فهمهم :

ألا سحقاً لهذه الإلهة التى تدْعى «صيْف» ... إنى لاأجدُ لها أثراً ، لقد خشِيت بَأسى ، فولّت هرباً !

وأطلقَ قهقهة راعِدةً ، فما أسرَع أن تجمّعَت في السماءِ غيْمَـةٌ جعلت تتـكاثَفُ !

وبينما هو في طريقهِ وقد أجهَدَهُ السَّيْرُ ، إذ تراءت له كومة من السعَف اليابس ، فصاحَ بها :

ماذا أنت ؟

فاشرأبّت النُّخيْلاتُ الثـلاث العجَافُ مذعورةً ، والنومُ يتطايرُ من أجفانها ، وقامت في جُهْد وإعْياءِ تحاول أن تُقَوّمَ أوَدَها وتَلُمَّ شعَثها ، وتستقبلَ تلك الهَبَّةَ الباردةَ التي أقبلت من حيثُ لا تدري ، وكانت الغيمة المتكاثفة قد أخذتْ تتلبدُ ويتساقطُ منها رذاذ .

ووقف « شِتـاءٌ » يُحدّق ، فإذا بحسناء ممدّدة على هَشيمٍ ؛ يُغطّي جسمها خصُلاتُ شعَرِها الأملَسِ الحالِك ، وهي مستغرقةٌ في سُبات عميق ، ووجنتاها تتَّقدانِ بُحمرَةٍ قانية . . . وهمّ « شتاءٌ » أن يرسِلَ صَيْحةً يبعثُ بها تلكَ الناعسةَ من رقادِها ، ولكن الصيحةَ ارتدّتْ إلى حَلْقه . . . وطالت وَقفَته حيالَها ، وهو يَرْمقها متَوسماً . . . ودَبتْ الحيرةُ إلى قلبـه ، وانتابه قلَقٌ ، ورأى أن يَسْأَلَ ، ولكنه وجد غادتَه تحَرّكُ أهدابَها ذَوَاتِ الظلال . . . وما هي إلا أن تطَلَّعَتْ « صيف » ، وهي تقولُ :

من ذا الذى جاء يُقلِقُ راحتى ؟

وتقدَّمَ « شتــاء » خطوةً ، وهو يُردِّد فى أدب كبير :

عفوَكِ ... عفوكِ .. لم أقصدْ أن أزعجَكِ من منامكِ . . . إذا رَغِبتِ فى أن أمضىَ عنكِ أطَعتُ من فَورى !

ـــ من أنتَ ؟.. وماذا تريدُ ؟

وكان لصوتها غُنةٌ فاترةٌ تبعثُ فى النفسِ الأحلامَ العذابَ . وأحسَّ « شتاء » بألفاظها تتسرَّبَ إلى حنايا نفسه ، فتُورِثُه شيئا من التخاذُلِ . فقَبضَ على شاربِه يحاولُ أن يَفتِلَه ، ليَشُدَّ من عزمِه ويبعثَ القوةَ فى كِيانه ، فوجد ذلك الشاربَ الضَّخمَ المتحجِّرَ قد تراخى هزيلا يتصبَّبُ قطراتٍ . . . واعترته رِعشة زلزلتْ أركانَه ، ونظر إلى « صيفً » فوجدها تتمطَّى فى استرخاء ، ويتضَوَّعُ منها شَذاً طيِّب ، وسَمِعَها تُرَدِّدُ :

من أنتَ ؟ ... وماذا تريد ؟

ورأى نفسه يتدانَى منهــا ويجثو ، ثم يقول بصوت حنون :

إنى شتاء . . . جئت أونسُ وَحدتكِ !

وأخذ بيدها يُعينها على النهوضِ ، فرنتْ إليه بسّامةَ الثغرِ في تدلـُّل وإغراء . ثم أسبلـَت جفنيها وقالت :

جميلٌ منك أن تؤنسَ وحدَتى ...

وأدركَ « شتاء » ضعفـُه البالغ ، ففزِعَ إلى شاربه يستمدُّ منه العون ، فلم يجدْ له مِنْ أثر . وإذا به تسايلَ على الأرض وتجمعت من ذَوبه برْكة صغيرة ، راح « شتاء » يتأملها حيرانَ دهشا ، فأبصر وجهه وقد استحال وجها صبيحا أمردَ يزهو فتوة ونضارة .. وسمع « صيف » تقول :

كنتُ أعلم أن « شتاء » شيخ أشيبَ ، ولكننى أجدُك فتى فى ميعة الصبا !

وتلعثم « شتاء » فهمهم بكلماتٍ متقطعة ... وأراد أن يدنو منها ، ولكنه أحسَّ عباءته الثلجية تذوبُ ... ياللهوْل ! ... إن كساءَه الوحيدَ يزولُ عنه ... وبان صدره العريضُ ، وانكشفتْ ساقاهُ المكتنزتانِ ، فانتابه جزعٌ ، وأخـــذ يتشبثُ بما بَقِى من عباءته المتزايلة ليسترَ نفسه .

وأطلّت العناصرُ من أوكارها ، وخافقتْ تتهامس ويبتسمُ بعضها لبعض ، وترنحت النُّخيلاتُ الثلاث من طرَب ... وازدادت حيرة « شتاء » وكثرَ تلفته حوله لا يعرفُ ماذا يصنع ؟ وإذا بـ « صيف » تقولُ فى صوتها الأغنِّ :

لا عليكَ ... ادنُ منى لأخفيكَ بشعَرى عن مَرْمى العُيون!

وسرعانَ مانمتْ حشيشةٌ خضراء نضيرة مكانَ ذلك الهشيم الذى كانت تتمدَّد عليه «صيف» ... واستجابَ لها «شتاء» فاقتربَ منها، فمدَّت إليه ذراعيها، وأمسكتْ بيديه، وهمتْ تقول:

شدَّ ما أنتَ مقرور ... توسدْ صدرى لتنعَمَ بدفء طيب!

ولم يملكْ «شتاءٌ» إلا أن يذعن لما شاءت، ووضع رأسه على صدر الحسناء، فبدلت عليه خصلاتِ شعرها الفينانِ ... وتلاقىَ الوجهان، وتشابكت النظراتُ، وما أسرعَ أن غابا معاً فى قبلة أغلبُ الظنّ أنها لبثت عصوراً متطاولة!

وترادفت مئونَ من الأحقاب وعاد للأرض زخرفها الفاتن، فجرَت الأنهارُ، وتجاوبتِ البساتين بالأغاريدِ، وسرى النسيمُ فى الأجواءِ أريجاً عطراً، وانطلقت العناصرُ تتغنى وتتراقصُ، وأشرقت على الأرض ابتسامة رَفَّافة؛ إذ كانت تزهو بحلةٍ قشيبة رائعة ...

وكان «شتاء» و«صيف» يسيرانِ جنباً إلى جنب، وكل منهما آخذٌ بخصر صاحبه، وهما يطوّفانِ فى تلك المرُوج السعيدةِ يقطفانِ الأزاهيرَ، ويميلانِ على الغدران يرتشفانِ خمرَ المحبةِ

والهناءة ... وكان يدرجُ حولهما طِفلاهما الوضيئان : « ربيعُ » و « خريفٌ » ...

فأما « ربيعُ » فعذراءُ ذات عيونٍ خضر تجمّعت فيها فتنةُ الزهور .

وأما « خريفٌ » فإنه فتى ذو شعَر ذهبي وهاج .

وطال أمدُ هذا النعيم ، فحسبت الأرضُ أن ذلك خلدٌ ليس له منتهى ، فأخذتها العزّة ، وركبتها الخيلاء ، فطفقت تتطلّع إلى الكواكب تياهةً تتعالى عليها بضحكاتها ، وترشقها بسُخرياتها .

ودبّت الغيرة فى قلوب تلك الكواكبِ وكثرَ بينها الهمسُ ، همسُ التآمرِ والكيدِ ، إذ عزّ عليها أن تستأثرَ الأرضُ الفانية بهـــذا النعيم المقيم الذى هو من خصائص العالم الباقى . ثم أرسلت الكواكبُ من يوَسْوسُ بالوقيعةِ فى أذنِ أبى الآلهةِ « رع » ، فتعقدَ جبينه غضباً ، ورمى الأرض بشظيةٍ من نظراته المتأججةِ ، وهو يدَمدِمُ :

تبّـا لهذه الأرض التى لا تلقىَ الأكوانُ منها إلاّ العناء !

وزلزلت الأرضُ زلزالها من هول تلك النظـرة ، وكادت تتبعثرُ أشلاءً .

واستطرد أبو الآلهة يقولُ :

كيف عنّ لك أن تستمتعى بهذا النعيم الدائم وتجعليه خالصاً

لكِ فى عالمكِ الفانى ؟ أما عَلمتِ أن الفردوسَ الخالدَ إنما هو وقفٌ على العـالم الآخرَ ؟

ثم التفتَ إلى « صيف » و « شتاء » قائلا لهما :

أما أنتما فلى معكما شأن أىُّ شأن !

فجثا الإلهان على ركبتيهما خاشعَـين ...

وانبعثَت الأرضُ صارخةً مولولة ، تلتمسُ الرحمـــة . ولكن « رَعْ » لم يُلقِ لضراعتها أذناً ، وازدادت الأرض نحيباً ، فانهملَتْ دموعُها طُوفاناً دَفّاقا كاد يأتى على أرجائها جميعا ، وتراءت العناصرُ على الأمواج مجهودةً يكاد يَدْركها الغرَق ... واضطرّ « شتاء » أن يَحمِلَ « صيف » على ساعدينه يمخرُ بهـا العُبَابَ ، على حين تعلّقَتْ « ربيع » و « خريف » بمنكبيه يرجُفان ... وظلّ الماءُ يتعالى حتى بلغ صدرَ « شتاء » والأرضُ ما برحَت تنتحبُ وتتضرّع ، وازدادَ الماءُ علوّا حتى لامس ذَقْنَ « شتاء » ، وكلّت يداه ، وأحسّ بقدميْه يُصيبهما الخَورُ . فانطلقتْ من حلقه صرخة استغاثةٍ حَرّى وقال :

يا أبا الآلهة ! ... إننا أتباعك المخلصون ... إننا أبناؤك البررة فلا تدعنا فريسة للهلاكِ !

وألقىَ « رع » نظرةً عاجلةً ، فبصُر بـ « صيف » وهى ممدّدة

على ذراعَىْ « شتاء » بقَوامها اللؤلؤىّ الرَّطْبِ تكسوهُ خصلاتُ شعرِها الحالكِ الأملَس ، وهى ترسل إلى أبى الآلهة نظرات توسلٍ واسترحامٍ من عينيهــا الناعسة ذاتِ الأهدابِ الطويلةِ السودِ ، وقد بدا على محيَّاها شحوبُ الإعياء ...

وحكَّ أبو الآلهة رأسَه بإصبعه ، فانتفش شعرُه ، فما أسرعَ أن توهَّجَتْ قبة السماء !

أخيراً رَقَّ للأرض قلبُ « رَعْ » ... فقال لها :

كُفِّى َنحيبا .. لو تركناكِ تذرفين دمعك الهتون لعم الفضاء طوفان طامٍ مَوَّاج !

وفجأةً أخذ الماءُ يغيضُ على وجه الأرض ...

ونطق الإلهُ الأعظمُ بحكمه :

رضينا أن نسلم زِمامَكِ أيَّتها الأرضُ إلى هؤلاء الآلهة الأربعة : شتاء ، فربيعُ ، فصيف ، فخريف ... على ألاَّ يحدث بينهم اجتماعٌ فى زمان واحد كما حدث ، فليتولوا الأمر متعاقبين ، لكلٍّ منهم نوبة لا يعدوها ولا تعدوه !

ومال ببصره إلى الآلهة الأربعة ، قائلا :

لقد سمعتم حُكْمى ، فاكفُونى أمر هذه الصَّخَابة التى لا تقنعُ بشىء ... !

وأشار بصولجانه الشمسىّ إشارةَ الإبرام ، فأومأت الأفلاك

إيماءةَ الطـَّوع والإذعانِ ! . . .

* * *

هـــذا ما وَعَيْتُه من حديثِ الكاهنِ الفِرْعَونيّ في غَفْوتي .

فهل كان هذا الحُلْمُ إيماءً بمفتاحِ الجوابِ عن السؤالِ الذي وجَّهه إليَّ في مصير العالم لو انفردتْ به المرأةُ وحدَها أو الرجلُ وحدَه ؟

لست أدري . . . والله أعلم !

ولىّ الله

فى أمسيةٍ من أماسىّ مايو المشبَعةِ بأنفاسِ الربيع ، جلستُ إلى صديق « برهان بك » فى حديقته الفيحاء ، بمَغناه الأنيق فى الجيزة ، نتطارحُ أحاديثَ ذاتَ شجون .

وكان صديق من رجال الضَّبطِ والأمن الذين تبوّءوا مناصبَ الإدارة فى شتى الأقاليم ، حتى أدركته سِنُّ الإحالةِ إلى المعاش وهو وكيلٌ لمديرية الدقهلية . فاستقرّ به المَقامُ فى ذلك المَغنى بعد طولِ تَطواف ، وبعد حياةٍ صاخبةٍ فى مُطاردةِ الأشرار وإقرارِ الأمنِ فى رُبوع البلاد .

وعلى الرغم من أن صديق قد نَيَّفَ على الستين ، فإنه ما بَرِح محتفظا بطابَع الجندىّ : قامةٌ فارعة ، وصدرٌ عريض ، وساعدان مفتولان ، ووجهٌ يُجمِّله شاربان مسنُونان .

وفرغتْ جَعْبَتُنا من الأحاديث فى جلستنا الممتعة ، فما هو إلاّ أن غَشِيَنا الصَّمتُ بعضَ الوقت ، وقد عَلِقَتْ عيوننا بالقمر وهو يتعالى فى الأفق مَزْهُوّ القَسَماتِ ، يبعثُ بضيائه

اللألاء خلالَ الأفنان كأنه ذوبُ الفضة يتسايلُ قطرات ...

ولما طابَ لىَ المجلسُ ، وخشيتُ أن يمتدَّ الصمتُ فيسرعَ إلينــــا الملَلُ يشوبُ ما نحن فيه من صفْو ، اقترحتُ على « برهان بك » أن يقص علىَّ أعجبَ حادثٍ وقع له فى حياته الإدارِيّةِ العامرة ...

فتبسَّمَ لى الصديقُ وهو يرقبُ القمرَ هادىءَ النَّظرَات . ثم قال :

يرى الناسُ أن حوادثَ الإجرام التى تمُرُّ بنا متشابهة فى أكثرِها لا جِدَّة فيها ولا غَرابة . وقد يكونُ ذلك الرأى على حق . ولكن بين ذِكرَياتى حادثةً تتميَّزُ عن سائر الحوادث بما كان لها من طَرَافة ترتفعُ بها عن المألوف .

كنتُ آنئذٍ « حكمداراً » لمديرية الشرقية ، أقيم فى المسكنِ وحــــدى ، يخدمنى النُّوبىُّ « خير » الذى رافقنى فى كثير من تنقُّلاتى فى البلاد . وقد عَهِدْتُ فيه الأمانةَ والنشاطَ ، فحرَصتُ عليه وبَرَرْتُ به . وفى يوم ما استأذننى فى أن يتغيَّبَ نهارَه وليله لشأنٍ يتعلق بعلاج زوجه ، وكانت مريضةً أزْمنَتْ عِلَّتها ، وطالت شكواها .

وعاد خادمى فى غَد ، يعدّ لىَ الفَطُورَ ، فسألته :

ماذا قال لكَ الطبيبُ يا خير ؟

فأبطأ جوابه لحظةً وهو يتشاغلُ ببعض عمله ، وقال :

لم نذهبْ إلى طبيبٍ يا سيدى ! ...

— فإلى من ذهبتَ بزَوْجكَ إذن ؟

فجعل يُنَظِّمُ وضعَ الأطباقِ على المائدة ، وهو يقول في همهمة :

إلى الشيخ الطشطوشي ياسيدى !

— ما شأنُ الشيخ الطشطوشي بمرض زوجك ياخير ؟

— أنت تعرفُ ياسيدى أنى لم أدَعْ طبيباً إلاّ طرَقْتُ بابَه ، وقد أرسلتَنى أنتَ إلى من تثق بهم من الأطبَّاء ، مع الإيصاء بى ، فلم أفز منهم بطائل كما تعلم .

وأخذتُ أفُتُّ الخبزَ في اللبن ، وأتناولُه بملْعقَتى ... ثم قلت :

وهل صادَفْتَ بُغْيَتَكَ عند شيْخِكَ الطشطوشيّ ؟

فاعتَدَلَ في وِقْفته ، وقال في لهجةِ جدٍ ويقين :

كانتْ زيارة موفقة يا سيدى !

فرفعتُ إليه بَصَرى أقول :

هل شفى الشيخ الطشطوشيْ زوجَكَ ؟

— لقد خَفَّتْ آلام الظهر كثيراً عن ذى قبل ، ولم يبق علينا إلا أن نزور الشيخَ مرة أخرى فيتمَّ الشفاء ...

فتلاعبت بملعقتي وأنا أصعّدُ فيه النظر ، وقد سنَحَتْ على فمي ابتسامة ، وقلتُ :

أعلى ثقة أنتَ بأن زوجَكَ استثمرَتْ فائدة حقة من هذا الشيخ ؟

فقال في صوتٍ ملؤه إيمانٌ بما يقول :

ثق ياسيدي أن لهذا الشيخ قوةً خارقةً في شفاءِ المرضى ... الناسُ جميعاً يتحدّثُونَ بكراماتِه !

— وأينَ مكانه ؟

— معتكف في زواية على أطراف قريةِ أبي العرائس ...

وعلمتُ أن القرية تنأى عن العمران ، فبينها وبينَ «الزقازيق» ، حيثُ أنا مقيمٌ ، ثلاثُ ساعات : في السيّارةِ نصف الطريق ، وعلى الرّكوبةِ نصفه الآخر .

وفي مدْخَلِ الليل ، وأنا أدّخنُ لفافتي بعد أن تناولتُ العشَاء ، أخذَ خادمي «خير» يَرْوي لي أشتاتاً من أنباءِ كرّاماتِ شيخه «الطشطوشيّ» ، وسماحةِ نفسه ونبل خلائقه ، فاستثارَ فضُولي بهذه الأحاديث ، وهو يندفع لا يَمَـلّ ولا تنفَدُ له كلماتٌ ، وأنا أستطيبُ حكاياته وأنباءَه وأستعيده ؛ إذْ كنتُ مشغوفًا بدرْسِ نفسيّاتِ الشُّذّاذِ من الناس في هذا المجتمع ، ولي ملاحظاتٌ وإحصاءات شخصية أستلْهِمُ

فى شأنها تجاربى .

وقلت لخادمى « خير » أخيراً :

متى تزورُ الشيخَ زيارتَكَ الثانيــــة ؟

— يومَ الخميس المقبل ياسيدى ...

— ربما صحبتك يا خير ...

فنظَر إلىَّ نظرةَ حيْرَة وتساؤُل ، قائلاً :

سلمتَ يا سيدى ... هل لكَ عنده طَلِبَة ؟

فابتسمتُ ابتسامةَ إشْفاق ، وقلتُ :

لا يخلُو الجِسمُ من عِلَّةٍ يا خير ...

— أبَشِّرُكَ بأن الشفاء سيتحقَّقُ على يدَيه !

— سأجربُ طبَّ شيخك فى علاج قدَمى ... أنت تعلمُ أنى أشكو التِواءً خفيفًا فيها ...

فقاطعنى « خير » قائلا :

من جرَّاء الحادث المعروف يومَ خرجتَ تطاردُ نفراً من المجرمين فى بعض قرى أسيوط ، فسقطتَ عن فرسك ؟ ...

— الأمرُ كذلك .

— رُقية واحدة من شيخنا الطشطوشى ستمسح عنك الألم لا محالة .

فنفثتُ دخان لفافتى متضاحكا ، وقلت :

على بركة الله !

انبلجَ صبحُ الخميس ، فصحوت مع الطير . وتنكرت في ملابس شيخ بلدَة ، وساعدني على اختفاء شخصيتي أن بشرتي أميل إلى السمرة ...

واستأذنَ عليّ « خير » فما إن رآني حتى بدتْ عليه دهشة ، فقلتُ :

إني لا أريدُ أن أكون نهب عيونِ الناس !

فهمهم وهو يكتم ابتسامته :

لك حقٌ ... سعادة الحكمدار يقصد إلى الشيخ الطشطوشي ليعالجه ؟! ...

وخرجت أطلب الطريقَ إلى السيارة ، فاعترضتْ عيني كومَة ملتفة في السواد لا يبدو منها إلاّ عينان تومضان وميضاً مضطربا ... فربتُّ كتفها ، وقلت :

كيف الحال يا حاجة ؟

فتمخضتْ الكومة عن صوتٍ هزيل مرتجفٍ ، يقول :

الحالُ على ما يرامُ ببركةِ الشيخ الطشطوشي !

ثم جعلتْ تتمتمُ بأدعيةٍ وصلوات .

وجاء « خير » فأخذ بيد زوجِه وتبعاني إلى السيارة فصعدنا فيها جميعاً . وأبت الكومةُ إلاّ أن تقتعدَ أرضَ السيارة

أمامى ، على حينَ جلس زوجُها بجوارى متضائلاً منكمِشاً فى جلبابه القشيب ...

وانبعثت السيارةُ تطوى الطريقَ ، متجهةً إلى «كفر صقر» والكومةُ السوداء أمامى صامتٌ تهتزُّ كأنها صرةٌ ملقاة... !

وكان يقطعُ السكونَ بين فَيْنةٍ وفينة حديثُ «خير» فى إطراءِ الشيخ «الطشطوشىّ» ، وروايةِ ما يتناقلُه الناسُ من عجائبِ الأقاصيص . فهو صائمُ الدهرِ قنوعٌ لا يَطعَمُ إلاّ ما يمسكُ رمقَه ، ولا يدّخرُ من قوتٍ ولا مال ، بل يجودُ بما يتجمعُ لديه من الهدايا والصلاتِ على من يلوذونَ به من البائسين وذوى الخصاصة . وهو يعتكفُ ستةَ أيام من الأسبوع فى زاويَة مغلقةً عليه لا يفتحها أحد ، يقومُ فيها الليلَ متهجّداً يصلّى ويقرأ ويَبتهل ، حتى إذا كان يومُ الخميسِ فتحَ بابَ الزاويةِ لقاصديه وزوّاره ، وجلس إليهم يعالجُ من شئونهم ، ويدعو اللهَ لهم ، ويمنحُهم الخيرَ والبركات ...

وكان «خيرٌ» كلّما أكملَ جانباً من حديثِه نظرَ إلى الكومةِ السوداء فإذا بها تومىءُ برأسِها إيماءةَ التصديق ، وهى فى صمتها مسترسِلة ...

وما إن وصلْنا إلى «كفر صقر» حتى اكترَينا حميراً ثلاثةً أقلّتنا تمشى الهُوَينَى مخترقةً المرُوجَ والحقول

فى ليّات من الطرُق عسيرة .

وممـاَ زاد من وعثاءِ الطريق وقدَةُ القيظِ ، فقد آذَتنا لَفحاتُ الشمس ...

وكنتُ فى أثناء السير أنسرحُ بفِـكرى فيما سأصادفه عند الشيخ مما يحيِنُنى فى أبحاثى النفسية التى شغفتنى حبّا .

ولاحت لنا مشارفُ قريةِ « أبى العرائس » فأشار « خير » إلى مبنًى صغير ناصع البياضِ تلتفُّ به شجَيراتٌ عِجاف . وقال : تلك هى الزّاوية ! ...

واتجهنا صوبَها ، فلمحتُ زرَافاتٍ من الناسِ بين جالس بالباب ، وبين مُطيفٍ بالزاوية ، وبين مُنصرِفٍ عنهـا أومقبِـل عليها ...

ونزَلنا عن المطايا ، وخطوْنا إلى البابِ ونحن نفسحُ لنا منفذاً بين الجمع ... واستطعنا أن نَلجَ الزاويةَ ، فإذا برَحبتها تزخرُ بالقصّادِ والأتبـاعِ . هؤلاء أشياخٌ يتحامَلونَ على عكّازاتهم فى مَشقّـة وعناء ، وتلك نساءٌ يحمِلنَ أطفالهُنّ المهازيلَ فى تلهّف وحنُـوٍّ . وأولئك ضروبٌ من الناس، هذا قد عصبَ بمنديله رأسَه ، وذلك قد لفَّ بالضّمادات ذراعَه ، وهذه تسبِـلُ على عينيها الرّمداوَين خمارَها تحاولُ شقَّ طريقِها فتتخبّـط ... ولم يرُعنى فى ذلك كلّه إلاّ مَسحةُ البِشرِ والأملِ

تفيضُ بها تلك الوجوهَ التي قدِمَت تلتمسُ البُرءَ من أدوائها ، أو لتوفيَ بالنَّذرِ جزاءَ ما لقِيَت من شفاء.

وكان المكانَ رَطْباً شحيح الضَّوء ، أحسستُ فيه بردَ الراحةِ من لفحات الطريق . وعلى الرَّغم من تكاثُر الناسِ فيه وازدحامِهم به كانت تغشاهُ سكينةٌ طيّبة وهدوءٌ محبَّب يَبعثان في النفسِ أمناً وطمأنينةً ، فلم يكن يَطرُقُ سمعي في الزاويةِ إلا همهَماتٌ يلحَقِ بهـا بعضٌ إلى بعض في تهيُّب وخشية ، وإلا دعواتٌ إلى اللهِ أن يَمدَّ في عُمرِ الشيخ ويُديمَ على السائلين نفحاته الزَّاكيات .

وكان « خيرٌ » وكومتهَ السوداء يتقدَّماني ، فما إن مشيْنا بضعَ خُطُواتٍ حتى انفرجتْ ثُغرَةٌ رأيتُ فيها قبراً ظاهراً برَز منه شاهدٌ بعمامةٍ خضراء ؛ وعن كثبٍ من القبر مصطبةٌ يتربَّع عليها شيخٌ يرتدي البياضَ الناصعَ ، كبيرَ العمامةِ فضفاضُ الجبَّةِ في يدهِ مسبحةٌ غليظةُ الحبَّاتِ تملأ حجرَه ... وكان صبيحَ الوجهِ ، برَّاقَ النظرات ، تتهدَّلُ لحيتُه الشهباءَ على صدرِه في مَهابةٍ ووقار ...

وتدانينا من مجلسهِ بخُطاً هينات ، ثم اتخذنا مكاناً على مقرَبة منه نرتقبُ نوْبتنا في الجلوس إليه ... وغمزَ لي « خيرٌ » بعينه يشيرُ إلى القبر ، وهمسَ في أذني يقولُ :

إنه مَثابة الشيخ ... يقضي في غيابتِـه جُـلَّ وقته ! ...

وبقيتُ لحظة متعجباً أردد النظرَ بين الشيخ والقبر ... وبعدَ قليل وجدتني أركزُ بصري في وجهِ الشيخ، وأطيلُ التحديقَ في عينيه ...

وأطرقت أسائلَ نفسي :

ألي بهاتين العينين سالفُ عهد ؟

ثم رفعت بصري أعاودُ التحديق في وجه الشيخ . ووجدتني أتلفتُ حولي ، فأرى أتباعه قد تعلقتْ نظراتهم بوجـــهه كأنما وصلتهمْ به أسلاك ... وقد كانوا يُرهفون إليه السَّمعَ فاغرينَ أفواهَهم في تطلع واختلاب ، والشَّيخ يلفظ كلماته رخيةً في غُنَّة عَذبة وهو يرقِي مرضَاه ويمسحُ عـــلى رءوسهم في تحنن وإشفَاق ... وبين حين وحين ألحظُ يدَه قد امتدَّت في مسارقة إلى قاصديه المعوزينَ يبرُّهم بالعطايا في صمت وسُكون ...

وعدتُ أتطلعُ إلى الشيخ أرْقبُ نظراته الثواقبَ ، وامتدَّ بيَ التطلُّع والارتقـــابُ . وشرَدَ ذهني يتصفَّحُ سوالفَ الذِّكريات ...

وبغتة سمعتُ الشيخَ يقولُ :

تقدَّم ... ما عليكَ بأس ...

وأقبلتُ عليه، واتخذتْ مجلسي قبالته ... وتلاقتْ نظراتنا ...

ولبثنا وقتاً يرنو كل منا إلى صاحبه صامتاً ... أثمةَ اختلاجة طرأت على قسمات وجه الشيخ ؟ ... وشاهدتُ ابتسامة خفيفة تعبر فمه ... أهي ابتسامةٌ غامضة يحاولُ بها الشيخُ إخفاء بعض مشاعره ؟

ورجعتُ إلى نفسي أسائلها :

أعلى يقين أنا من أنى لم أشهدْ هذا الوجهَ قبلُ ؟

وأنبهتنى غمزةٌ غمزنى بها « خير » يشيرُ إلىَّ أن أتقدَّم ... وسمعته يقولُ للشيخ :

إن صاحبي يشكو قدمَه، وقد جاءكَ يلتمسُ الشفاءَ على يديك...

ومددتُ للشيخ قدمى ، وأنا أهمهم :

منذُ أعوام سقطتُ عن فرسى سقطةً ما زلتُ أجدُ ألمها فى قدمى حتى اليوم ...

فمدَّ الشيخُ يدَه ، وتمتم قائلاً :

ستُشفىَ بإذنِ الله ...

ثم شرَع فى رقيته هادئ الملامح فى صوته الأغنِّ المعهود ...

وما إن انتهت رقيته حتى قال فى نبرات واضحة :

الشفاءُ منكَ قريب ، والله على كل شىء قدير ...

ثم أسبلَ جفنيه ، وكأنما قد غشيهُ سبات ... فجذبنى « خير » وهو يقول :

ضع تحت منديل الشيخ ماتجودَ به نفسكَ . . .

فأخرجتُ قطعة من النقود، ودفعتها تحتَ ذلك المنديل الأحمر المبسوطِ عند قدميْ الشيخ . . . ونهضتُ إلى الباب تاركاً «خير» والكومة السوداء يقضيانِ مأربَهما عند شيخ الزاوية .

وخرجت أتفيَّأ ظلَّ شجرةٍ اجتمع تحتها الفيف من زوَّار الشيخ يتحدث بعضهم إلى بعض، فجلست قريبا منهم: وبادلتهم تحية بتحية ، وخضتُ معهم فى الحديث . وجعل كلٌّ منهم يروى لرُفقته غرَضه من الزيارة ، وما أصابَ على يدِ الشيخ من بركةٍ وخير .

وسمتْ نفسى إلى أن أتعــرفَ شأن الشيخ كله ، فرُحتُ أسائلهم عن نشأته وحياته ، فانطلقَ أحدهم يرْوى حادثاً عجيباً وقع منذُ عشر سنينَ ، وذلك أنه كان غيرَ بعيد من القريةِ قبرٌ متهدِّم مهجورٌ لولىٍّ من أولياء الله اسمه الشيخ «الطشطوشىّ» ، لم يكن يَقصدُ إلى زيارته إلاّ نفرٌ قليلونَ من أهــل القرية وما حولها .

واتفقَ يوماً أن مَرَّ بجانبِ القبرِ فلاَّح مريضٌ نَهكتهُ العِلَّة ، وكان الإعياءُ قد بلغَ منه مَبلغا ، فأراد أن يَتقِيَ لفحَ الهَجيرِ ويَنعمَ بِقسطٍ من الراحة ، فأوَى إلى ظلِّ شجَيرَة خاوية عن كثب من الجدَث . وما هى إلا أن سمعَ حركةً تضطربُ فى أغوَار القبر ، فانتفضَ مذعوراً وهمَّ بالهرَب ،

ولكنْ تخاذلتْ قواه ...

وسرْعانَ ما أطلَّ رأسٌ من فوهةِ القبرِ ، فما كاد يرى الفلاح أمامه حتى اختفى فى مستقرِّه عائداً فجمدَ الرجلُ المريضُ مذهـــولاً ، وأراد أن يستصرخَ فاختنقَ صوته فى حلقه ، وتسمرتْ قدَماه فلم يستطعْ حراكا ، ومرَّت به فترة كان فيها مأخوذاً ... وسنحتْ بخاطره أسطورةٌ كان قد سمعها فى حداثته من عجائزِ الحىِّ ، وهى أن الشيخَ « الطشطوشىَّ » يُبعثُ كلَّ خمسينَ سنة مرةً ، وأن من يسعد برؤيته فى مبعثه ينـال ما يطمحُ إليـــه هواه ... فأحسَّ بشىءٍ من الطمأنينةِ والأمنِ يسرى فى أوْصالِه ، وتطلعَ إلى القبرِ طويلاً ، وبدأتْ شفتاه تختلجانِ بألفاظ مضطربة ...

وامتدَّ به الوقتُ وهو يغمغمُ ولا يكاد يبينُ . ولكنه بعدَ حينٍ ألفَى نفسَه يُرسلُ الصيحةَ عاليةً يقول :

يا ولىَّ الله يا مَلاذى ، فرِّج بحَق المصطفى كرْبتى !

ولبثَ ينتظر وعيناه لا تفارقان فوهةَ القبر ، وعاد يتضرع مستنجداً فى تذلُّل وتخاضع ، قائلا :

بحَقِّ المصطفى لا تخيِّبْ رجائى ، أنِلنى ما أبتغى ، وأشْرِقْ بنورِ طلعتكَ علىَّ يا قطب الأقطابِ !

واندفع فى توسُّلاتٍ متواصلةٍ فى حرارةٍ وعمقٍ ، فألفَى

القبرَ يضطرب ! . وما هى إلاَّ أن تثاءبت فوهته عن وجه الشيخ ...

وشاع الصمتُ برهةً ، والرجلُ يتطلعُ إلى الشيخِ جاثياً ... وأخيراً تكلمَ الشيخ ، فقال :

ماذا تريد منى ياعبدَ الله ؟ ...

فهمهم الرجل وقد حسَر بصرَه :

أَنلنى بركتكَ ، وأبرئنى من علـّتى ...

فتمتم الشيخ بكلمات غوامضَ ، وقد لوَّحَ بيده فى وجه الرجلِ يَمْنَةً ويَسرةً ، ثم تضاءلَ وتراجعَ حتى انطوى خلفَ الرِّجام ...

فمكثَ الرجل وقتاً لا يريم مكانه ، ولا يَحيد ببصره عن فوهةِ القبر ، وهو يرهف السمعَ ، ولكن الصمتَ كان قد خيَّم وشاع ...

وهمَّ الرجل بالقيام ، فآنسَ من نفسه فوْرةَ قوةٍ ووفرةَ نشاط ، وإذا به يجدُ ألم العلة قد تزايلَ حتى كاد لا يكونُ له أثر ... فهرول نحو القرية وفاض سره عن حنايا صدره ، فانطلق يروى ما جرى له فى حَمِيَّةٍ وحماسة وإيمان ، حتى لقد ذهبتْ به ظنون سامعيه كلَّ مذهَب ، وحسبوه قد مسَّه خبال ...

ولم تمض أيام حتى شاع فى القرية أن الشيخَ « الطشطوشىّ »

قد انبعث من قبره وتمثل للناس بشراً حياً ... وتحققت الأسطورة فى مبعث الشيخ كل خمسين سنة مرة ، فلم تتوالَ أيامٌ حتى كان القبر مزارَ الأفواج صباحَ مساءَ ، والشيخ يخرج لهم فى الفينة بعد الفنية ، يمنحهم البركةَ ويطلب لهم من الله تحقيقَ الرّغاب ... وكان بعد ذلك أنْ أقيمَ بناء الزاوية حولَ القبر ، وأصبح للشيخ مكانةٌ يتناقل الناس أخبارها فى القرى ، دانيها وقاصيها ...

وما كاد محدِّث الجمع يصلُ إلى هذا من حديثه ، حتى بدا أمامى « خير » وزوجُه وهما فى نشوةٍ من الابتهاج ، تلتمعُ أعينهما التماعَ التفاؤل والاستبشار ...

وقصدنا رباطَ المطايا ، واعتليناها عائدين .

وفيما كنّا نقطع الطريقَ كان « خير » مسترسلا فى ثرثرة مختلطةٍ من الأسئلة والأحاديث لم ألق لها بالا ، إذ كنت فى وادٍ آخرَ من الأخيلة والتصوُّرات ... حتى وصلنا إلى « كفر صقر » فنزلنا عن المطايا لنركب السيارةَ ، وسألنى « خير » وهو منكمشٌ فى ركنه ، والكومة السوداء مُلقاة تهتزُّ بين قدميه :

ألم تشعرْ بفائدة يا سيدى ؟

فقلت له عن الفور وأنا تائه النظرات :

حقًّا إن شيخَك لرجلٌ مباركٌ ! ...

فصاح « خير » فى إشراقٍ :

ألم أقلْ لك يا سيدى ؟ ...

ربما كفت زيارةٌ واحدة ، فإن لم تكف فإن زيارةً ثانيةً لا تدَع الألم موضعاً ...

ولما بلغنا الدار وأخذت أخلع ملابسى ، تمثلتْ لعينى صورة الشيخ لا تبرَح ... لقد رأيت هذا الوجه لا ريب ... أين ؟ ... متى ؟ ... ومضيت أستذكر ... أممكنٌ هذا ؟ ... وما كادت تسنح الشبهة فى خاطرِى حتى أقبلتُ على أوراقى القديمةِ أفتشُ عن مذكراتٍ كنتُ أسجلُ فيها ما يعرِضُ لى فى عملى من حوادث ذاتِ شأن ...

واندفعتُ أقلب الأوراق وأقرأ ، حتى عثرت على ضالّتى ، فانكببت أتفحص وأدقق ، واستخرجت إضمامة من الصور ، وسبحتْ عينى بين محتوياتها حتى استقرتْ على صورةٍ لم ألبث أن انتزعتها من الإضمامة ، ورحت أتأمل سيماءها فى جدٍ وتحقيق ، وأنا أوازن بينها وبين صورة شيخ الزاوية ...

وطال ترددى بين تصفح الأوراق ومطالعةِ الصورة وعرض الذكريات وتمثل الشيخ فى مجلسه ... !

وأمضيت أياماً لا يفتر اهتمامى بهذا الأمر ، فرأيت أن أبثَّ العيونَ فى قريةِ « أبى العرائس » يستطلعون خبر الشيخ ويسبرون

غورهُ خفية . وكذلك أرسلت فى طلب بعض ملفات من مديرية « أسيوط » خاصة بحادثِ « العصلوجىّ » ، أحدِ المجرمين الذين اشتبكت معهم فى موقعة دامية منذ عشر سنوات ، كان من أثرها أن اعتلتْ قدماى .

وسهرت ليالىَ أراجعُ الأسانيد وأستمعُ إلى ما تأتينى به العيون من أنباء شيخ الزاوية ، وكنت كلما تعمّقْت فى البحث قَوِيَتْ ظنونى ، حتى أوشكتْ أن تبلغَ ذِرْوةَ اليقين .

وكنتُ بين آن وآن أسائلُ نفسى وأنا أستعيد فى مخيّلتى صورةَ الشيخ :

أحقٌّ أن وجهَه اختلَجَ بعضَ اختــــلاجاتٍ حين وقع بصرُه علىّ ؟ ...

وترادفتِ الأيام ، فإذا بى أنتهى فى هذا الشأن إلى رأى طبت به نفساً ، وذلك أن ولىَّ الله الشيخَ « العشطوشىّ » وطريدَ العدالة « العصلوجىّ » اسمان على مسَمّـًى واحد !

وكنت أعجب أشدَّ العجبِ كيف تسَنى لذلك الجانى الأثيمِ الذى نشرَ الفزعَ والرُّعبَ حقبةً مديدة فى قرى الصعيد أن يسخر من عقول الناس ؟ ... وكيف تيسر له أن يفرّ من موطنه ويأوى إلى تلك القرية عشر سنوات طوالا دون أن يَفْطُنَ إليه أحدٌ ، وقد غدا قدّيساً يتوسط بين الله وعباده، يدرُّ عليهم الخيرَ

والبركات ؟ ! ...

وضربت المائدة بيدى ، وقمت واقفــــاً ، وزهو الانتصار يتلألأ في عيني ، وقد امتلأت غبطة بأنى على وشك أن أضع يدى على ذلك الآثيم الذى طالما نشدته فى كل مكان ، وبذلت أقصى مجهودى فى هذه السبيل حتى كدت أدركه ، ولكنه أفلت ساخراً من يدى ، ولاذَ بالفرار .

ودبرت الخطة التى أبلغ بها غايتى ...

وفى صبح يوم الخميس أعددْت العُدَّة لأمرى ، وخرجتُ متخفياً فى زى شيخ من مشايخ البلاد ... فلقينى بالباب « خير » وقال لى :

يبدو لى أنكَ غادٍ لاستكمال شفائك عند الشيخ ...

فقلت :

الأمر كذلك ، وأرجو أن تكون هذه هى المرة التى أحتاجُ فيها إلى زيارته ... !

ـــ ألا أرافقك ؟

ـــ أفضلُ أن أذهب وحدى... لقد عرفت الطريق ياخير !...

وصعدت فى السيارة قاصداً « كفر صقر » ، فلما وافيتها ركبت مطيَّة إلى قرية « أبى العرائس » فبلغت الزاوية فى رونق الضُحَى ، وحثثْت خطاى نحـــو المبنى الأبيض حوله شجيراته العجاف،

وتبيَّنت عيوني منبثين في أرجاء البقعة مندسِّين في غمار الزوّار ... ودنا مني مُلاحظ الشرطة في لبوس التنكر ، وهو يهمس قائلا :

كل شيء معدّ ... ثق أن غريم العدالة لن يجد طريقاً إلى الخلاص !

فألقيتُ إليه ببعض أوامري ، فانصرف عني . وتحسّستُ مسدّسي لأتحقّق منه في مستقرّه . . . وكانت الزاوية على المألوف تموج بالمريدين والأتباع ، أفواجٌ تذهبُ وأفواجٌ تئوب . فرقتُ داخل الزاوية ، واتخذتُ مكاني غير بعيد من الباب أرقبُ الشيخ دون أن تقع عينه عليّ ، وهو على مصطبته مهيبُ الطلعة ، تحفّ به جلالةٌ ووقار ، وأطلتُ التحديق فيه أحصي عليه حركاته ، وأتفحّصُ سماته ، وعجبتُ كيف اكتسب ذلك الإنسانُ الأثيمُ هذا الطابع الرائع من التُّقى والورع ، ومن أين له هذه الهالةُ من الخشوع والمهابة ؟ ... إني لأكادُ أنكر يقيني وأكذّب عيني فيما أعرفه من شأن هذا الجبّار العنيد الذي أعيا رجال الأمن خبثاً وشرّاً ...

لقد كانت عيونُ الناس محيطةً به كأنما شُدّت إليه بأمراس ، تستلهمُ منه الراحة والطمأنينة ، وإنه ليتلقّاهم بنظراته التي تشعُّ رحمةً وحناناً ، ويغدقُ عليهم أحاديثه التي

تقطر وداعةً وطيبةً وإخلاصا ! ...

هاهو ذا لا يكاد يمسّ بأناملهِ مكلوماً يئنُّ من فرطِ آلامِه حتى يعودَ ذلك المكلومُ شخصا تفتّحتْ الدنيا أمامَ ناظريه فى نضرة وإشراق ... وهأنذا كلما تلفتُّ حواليَّ هالتنى دموعُ السرور والاغتباط تفيضُ بها عيون الأمهات وهنَّ يضممن إلى صدورهن فلذاتِ أكبادهنَّ التى نالت من نفحاتِ الشيخ نعمة الشفاء ! ...

لقد أحسستُ أن كلَّ قلب فى هذه البقعة يخفُقُ بالحبِّ والولاء، ويَدينُ بالفضلِ وإسداءِ الجميل لذلك الشيخ الصالح الذى يمثّلُ الخيرَ المحضَ فى صومعته المنعزلةِ عن عالم الشرورِ والآثامِ ... أفى مَكنَةِ امرىءٍ أن يرتابَ لحظةً فى صدقِ طوية هذا الرجل ونقاءِ سريرتِه ؟ !

وأزِفَ وقتُ العمل المُدبَّر ... فكان علىَّ أن أدنوَ من الشيخ لأحظَى منه برُقية تشفى قدمىَّ ، على حين يقفُ ملاحظُ الشرطة خلفَ الشيخِ فينقضُّ عليه وهو يتمتم برقيته حين أرسل بيدى إشارة خاصة اتفقنا عليها ...

وتقدمتُ بضعَ خُطُوات ، ثم وجدتُنى أتوقّف ... ثم استأنفتُ سيْرى ... وكانت خُطُواتى ثِقالا وئيدةً ، وكنتُ أردّدُ الطَّرْفَ حولى تطالعنى دائمـا تلك الوجوهُ الآمنةُ

المطمئنةُ ، وتلك الثغورُ الباسمةُ المستبشرةُ ، وتلكالنفوس الوادعة المستقرّة ؛ فإذا بخطاى تزدادُ تثاقُلا …

وألفيتُنى بعد فترةٍ قُبَالةَ الشيخ ، وهو ينظر إلىّ فى هدوء ، وقد ارتسمتْ على فمه ابتسامة لا تخلو من غموض .

وطالت وقفَتى ، وأنا حيرانُ الفكرِ ، مشتّتُ الخاطرِ ، تغتالُنى الشكوك . . . ولَمَحْتُ الملاحِظَ يستعجِلُنى فى إنجازِ مُهمته .

وسمعتُ الشيخَ يقول بنغمته الراتبةِ ذاتِ الغُنّة العذبة :

تقدم تقدم …

فشخَصتُ إليه بعينىّ ، وتلاقَتْ نظراتنا وقتا… ثم أحسست بنفسى أغضُّ من بصرى … وسمعته يقول :

تقدّمْ … شفاؤكَ مكفولٌ بإذنِ الله !

وجلستُ أمامه ، فانطلق يتمتمُ برُقيته ، ويدُه تلَوّح على قدمى .

ومكثتُ مطرِقَ الرأسِ ، خافضَ البصر ، غريقافى أخيلة غريبة كأننى فى غمرةِ الأحلام ، أسائلُ نفسى :

كيف يكون حالُ هذه القريةِ السعيدة بعد أن يرحلَ عنها وليُّها الطيِّب ؟!

وما إن فرَغ الشيخ من رقْيَتِه ، حتى وجدتنِى أخْرج

من جيبي قطعةَ النقودِ ، وأدسُّها تحت منديلهِ المبسوطِ كما فعلت أولَ مرةٍ . ونهضتُ من مجلسه متخذاً طريقي إلى الباب . . .
وما كدت أصل إليه حتى شعرت بيدٍ تجتذبني ، وإذا بالملاحظ يهمس في أذني ملهوفَ النظرات :

ماذا جرى ؟... ماذا جدَّ في الأمر ؟

فقلتُ له وأنا أنظرُ أمامي نظراتٍ شاردة :

خففْ من حِدَّتكَ ... الأمر يتطلبُ التريثَ !

وبدأنا سيرنا ، والملاحِظ تضطرب زمجرَته المكبوتة على شفتيه ، فسمعته يقولُ بعد خطواتٍ :

هذا المجرم ! ... هذا المحتال ! ... كيف نمهله ؟ !

فأمسكتُ بيده ، وقد قاربنا رباطَ المطايا ، وقلتُ :

أشعر بأننا كنا على وشكِ أن نقعَ في خطإٍ جسيم ...

— كيف ؟ ... كيف ؟

فضغطتُ يدَه ، وقلتَ :

سأشرحُ لك الأمر جليّاً ...

وفطنت في هذه اللحظةِ إلى شيء راعني حتى أذهلني ... إني أسيرُ على قدميَّ دون أن أجدَ ذلك الألم الذي لا زمني عشر سنوات ... يا اللهِ ! ... كيف فاجأني هذا الشفاء ؟ !

وأردتُ أن أستوثقَ ، فجعلتُ أغدو وأروح سريعَ الحركة،

أضربُ الأرضَ فى مَسيرى ، فما وجدتُ للألم من أثر ! . . .

وكان الملاحظُ ينظرُ إلىَّ حائراً يستبد به العجب ، فألقيت يدى على كتفِه ، وقد تطلقتْ أساريرُ وجهى ، وفاضتْ بالبشر عيناى ، وقلتُ له فى اهتياج :

انظرْ ... لقد نلتُ من بركةِ الشيخ أوفرَ نصيب !

كلبُ أسعد بك

حينما كنتُ طالباً فى مدرسةِ الزراعة بـ «ا لجيزة» كنتُ أترددُ فى أوقات فراغى على قهوةٍ صغيرةٍ بالقرب من الشارع العامّ يتراءى بجوارها جدول صغيرٌ وتتهـــدّل فوقها أغصانُ شجـــرة عتيقة ، وكنتُ أعدُّها حلقة الاتصال بين الحضر والرّيف ، أو بين المدنيةِ المزخرفة والحياة الفطريَّة .

فبينما تكونُ جالساً فى مقعدكَ الساذَج تشرَبُ القهوة فى هدوء وتصغى إلى خرير الماء ، وتتملّى منظرَ النبات ، إذ يصطدمُ سمعك بدَوىّ ترام ، أو يُفْعَمُ أنفُك بدخانِ سيَّارة .

وكان يتردّدُ على هـذه القهوة رجلٌ كبيرُ الجسم كُرَوىّ الوجـــه بأنف أفطسَ وعينين صغيرتين ، وكنت ألاحظ عليه مظاهرَ البؤس ، فاعتقدت أنه من ذوى المعاش الفقراء ، وأذكرُ أننى ماذهبت مرةً إلى القهوة إلاّ وجدته . أراه دائماً فى ركنه المعهود بجوار البـاب منتفخاً فى جلسته ، يرسل على كتفيه شملة بالية ، بين يديه القهوة يشربها والنارجـــيلة يدَخّنها ، ولا يفتأ

يصيح فى الفترةِ بعد الفترة بالخادم يصدرُ إليه أوامرَه . وكان لا يُرَى إلاّ مصطحباً كلباً أسود بشعَ الهيئةِ من فصيلةِ الأرْمَنت، يزعج القهوة بنباحه الثقيل ، وكان سيّده يبالغ فى تدليلهِ والاعتناءِ به ، ويخاطبه ببعض كلماتٍ إنجليزيةٍ بلهجة سقيمة لا تتعدّى قوله :

« كام هير جيمى . كام هير ماى دير ... ! (١) »

وكان يُلزمُ غلامَ القهوةِ أن يحْضِرَ للكلب الماء فى صحفةٍ من الصّحاف النظيفة ، ويَجمَع هو بنفسه بقايا الطعامِ مما يأكل روّادالقهوة ، ويقدّمها لحيوانِه غيرَ مبالٍ باشمئزازِ الناسِ وامتعاض صاحب القهوة .

* * *

وذهبت مرةً إلى القهوة فوجدت « عويس » ماسحَ الأحذية يتشاحَن معه ، وكان الرجل يَشْتم الغلامَ بصوته العريض الوَقِحِ ، وهو منتفخ الأوداجِ محمَرُ العينين يبصق أمامه بَصَقاتٍ متوالية . ورأيت الكلبَ ينبَح الغلامَ بشدّة ، ويجذِب أطرافَ ردَائه بأسنانه ، فتلافيت التداخلَ بينهما ، وقصدت إلى مكانى بجوارِ الجدول ومعى كتاب الزراعةِ المصريّة لأذاكرَ فيه .

وجاء صاحب القهوة فَحَسم الخلافَ وأنحى على « عويس »

---

(١) تعال هنا ياجيمى . تعال هنا ياعزيزى !

وأرضى الأفندى ببعض كلمات لاتخلو من تملُّق ، وترك الكاب ثوبَ الغلامِ ، وذهب إلى سيِّده ، فنظر إليه مليا وهو يهز له ذنبه ثم تمدَّدَ تحت قدميه ونام .

وجاءنى « عويس » حاملاً صُندوقَه على مألوفِ عادتِه ، فمددْتُ له قدَمىَّ فى غير وعْىٍ . واشتغَل الغلامُ بالمَسْحِ ، وأنا غارقٌ فى التفكير . وبعدَ بُرهةٍ خاطبتُ « عويس » ووجهى لايفارِقُ الكتابَ :

من يكون ؟

فأجابنى وهو منهمكٌ فى عمله :

طبيبٌ لا هنا ولاهنالك ، يَدَّعى أنه كان رئيسَ الأطبَّاء فى الجيشِ فى الزمن الماضى . . .

— والآنَ ؟

— على المعاش ! .. تصوَّر يابك أنه يريدُ أن يُعطينى نصف قرش نظيرمسح حذائه ووضع رباطٍ جديد له . وأى حذاء هذا الذى أمسحه ؟ ... لاأراكَ اللهُ ، أؤكِّدُ لك أن الطلاء لم يمسَّهُ منذ أن كان جنا به فى الجيش !

ولا حظتُ على الرجلِ أنه يُسَارِق النظرَ إلينـــا شَزْراً . . .

فأردتُ أن أحولَ مجرَى الحديثِ ولكننى لم أستطِعْ ،

إذْ كان « عويس » قد اندفعَ يقول :

نصفُ قرش واحد نظير مسحة ورباطٍ جديد؟! .. يُغنيني اللهُ يا سيدى ! . . . هذا فوقَ الخدَماتِ التى أؤدِّيها له دونَ مقابِل . ولو كان شخصاً فقيراً لقلنا نخدُمه لوجْه الله ، ولكنه رجل كانِزٌ ... كانِزٌ بلا شكٍّ . . .

وسمعتُ الرجل يبصُق بشدَّةٍ على الأرضِ ، فخفضَ «عويس» من حدَّتِه وهمس قائلا :

صدق بالله إنك لو ذهبتَ إلى بيته لظننت نفسك فى مزْبَلةٍ أو حظيرة بهائم ...لم كلّ هذا والدنيا آخرتها موت ؟... إذا لم يمتع الإنسان نفسه فى دنياه فما فائدةُ جمعه للمال ؟!... دعْنا ياسيدى ولْنُغلِقْ بابَ هذه السيرةِ ... !

* * *

وانقطعتُ عن القهوة بضعةَ أيام ، وبينما كنتُ مرةً فى الترامِ مُنهمِكاً فى قراءةِ « المُصوِّر » إذْ شعرتُ بشخص يدخُل العربةَ — وكانت مزدحمةً بالرُّكاب — ويحشرُ نفسَه بين الجالسين ، وسمعتُ همهمةَ استياء فى كلّ ناحية . ورفعتُ رأسى لأرى مَن الداخل ، فوقع بصرى أولَ وَهْلة على كابٍ أسودَ ضخمٍ بشع الهيئةِ عرَفته على الأثر ، ورأيت أمام مقعدى رئيسَ الأطبَّاء يمسَح وجهه المحتقِنَ المعقَّدَ ،

ويجذبُ الشملة على كتفيه ، ويدفع جارَه وهو يغمغمُ ويبرطمُ ، وتلاقَتْ أعيننا ، وشعرتُ بأنى أبتسم له . وشاهدتُه يُحيِّينى مجاملةً بابتسامةٍ خاطفَة . وبعد لحظاتٍ قال لى مندفعاً :

يدفعُ الواحدُ منا ستةَ مليمات لهذه الشركةِ الملعونة ليحظى بمثلِ هذه الجلسة المرهقة . أآدميُّون نحن أم بهائم ؟ ... أهكذا يحشرونَنا كأننا فى عربةِ حيوانات ؟ ... لماذا لا يزيدونَ عربةً على كلِّ قطار فى مثلِ هذه الأوقات ؟ ... أقسم بالله إنَّ «سوارس» الذى كنا ندفَع فيه ثلاثة مليمات أحسنُ ألفَ مرةٍ من هذا الترام !

فوافقته ، وأخذت أنعَى على الشركة هذا الإهمالَ ، فظهر على وجهه الارتياح ، وانطلقَ يناقلنى الحديث بلهجة وديَّة بلا تكلف ، كأنه يعرفنى منذ أعوام ، وقال :

لم تحضرْ إلى القهوةِ منذ أيام ؟ ...

— كنت مشغولا جدًّا ... لقد كبستْ علينا الدروس .

— والله يابنىَّ لو كنتَ معنا فى الجيش لاستصغرْتَ شأن ما يشغلك ... كنت لا أجد الوقتَ الكافى لأتناوَل كوبَ اللبَن فى الصباح !

— أخدَمتَ فى الجيش مدة طويلة ؟

فأجاب بلهجة متزنة ، وهو يعبث بسلسلة ساعته :

خدمت خمساً وأربعينَ سنة ... خمساً وأربعين سنةً ، وأنا أعيش فى الخيام وعلى صهوات الجياد ، أضمد الجرحى وأعنى بالمصابين ، ثم أخرج بعد هذه الخدمةِ الطويلةالعريضة الشاقّةِ بماش لا هو فى العير ولا فى النفير ... لا مكافأةَ ولا جزاء !

ثم مالَ علىّ وهو يبتسم وقال :

ألم تسمع المثلَ القائل :آخرُ خدمة الغزّ علقةٌ ؟

وكان قد خلا مكانٌ بجواره ، فنظر إلى كلبه القابع تحت قدميه ، وقال له وهو يفرقعُ إصبعه :

كام هير جيمى ،كام هير ماى دير !

وأشار له إلى المحلّ الخالى ، فنهض الكلب ، وبعد أن تمطى وتثاءبَ فى هيئة شنيعة قفزَ بجوار سيده والناسُ ترمقه بنظرات غضبى . والتفتَ إلىَّ طبيب الجيش وقال وهو يلاطفُ كلبه :

لم أرَ فى حياتى كلباً وفيّاً كجيمى، هذا ... إنه إنسانٌ وليس بحيوان . لقد استعضتَ به عن البنين ؛ فهو ابنى ، وعن الخدم ؛ فهو تابعى الأمين ، وعن الحرّاس ؛ فهو حارسى الذى يبذُلَ دمه فى سبيلى . أتُصَدّق أننى لا أعاشرُ فى منزلى سواهُ ... ؟!

ثم نظر إلى كلبه وقال :

أوه جيمى أى لاف يوفرى ماتش (١)

وكان بجواره شيخ معمَّمٌ مستغرقٌ فى تسبيحه ، فأحسَّ جسم الحيوان يلمسَ جبَّته ، فاستيقظَ فى رِعدةٍ ، والتفتَ من فوره ، فما إن وقع بصره على الكلبِ حتى وثب غاضباً يلعنُ ويسُبّ ، وتناول عصاه فدفع بها الكلبَ يريدُ أن يرغمه على تركِ المكان ، فرماه « أسعد بك » بنظرةٍ ملتهبة وقال ؛ وقد احتقنَ وجهه وانتفخَ :

ماذا تريد من الكلبِ ؟

— يجب أن تنزله عن المقعد !

— أنزله عن المقعد .. ؟ !

— إن مكانه ليس هنا ...

— ومن حضرتك حتى تلقى هذه الأوامرَ على الناسِ ؟ !

— الكلبُ نجس ، وأنا رجلٌ متدينٌ ، فيجب إزاله ...

— لقد دفعت ستةَ مليماتٍ لأركبَ أنا وكلبى ، فلا يستطيعُ أحد إنزاله .

— إذن أنا أتولىَّ ذلك !

ورفع الشيخُ عصاه يريد أن يَهوِىَ بها على الكلب ، فأسرعَ

---

١ — أوه ياجيمي ... أنا أحبك كثيرا جدا ...

« أسعد بك » ونزعها منه ، ثم ألقى بها فى الطريق والترام سائر ، وسرعان ما رأينا الرجلين قد اشتبكا فى مشاجرة اشترك الكلب فيها : فانطلق يعض قدم الشيخ ويمزق جبته ، وتألب الركاب معى على الرجلين نحاول التفريق بينهما ... ثم وقف الترام ومضى عامل التذاكر يستدعى الشرطى ...

* * *

وتواصلت الأيام ؛ وكثرت ملاقاتى لـ « أسعد بك » فى القهوة . وتوثقت بينى وبينه وشائج الصداقة . واتضح لى أنه شخص غير مضايق كما توهمت من قبل ، فكان إذا رآنى فى ركنى المعهود ، مُكباً على كتابى أذاكر درسى ، احترم عملى ولم يفتح فمه بكلمة معى . أما إذا لاحظ أننى لا عمل لى دعانى للجلوس معه ولا أذكر أنه أكرمنى بقدح قهوة أو قدم لى لفافة واحدة . أما حديثه فكان على سخافته مسلياً . معظمه حكايات عن حياته الماضية فى الجيش ، ونوادر عن كلبه لا تخلو طبعاً من مبالغات ومغالطات . وكان إذا بدأ حديث الكلب لمعت عيناه بوميض غريب ، وخيل لك أنه يتكلم عن ابن وحيد له قد وهبه موفور محبته وحنانه !

* * *

وتخلفت بضعة أيام عن القهوة ثم عدت إليها ، فكان أول

شيء لاحظته هو أن «أسعد بك» غيرُ موجود ، ولما جاءني الخادمُ بالقهوة سألتُه عنه فلم يُفِدني بشيء . وبعدَ قليلٍ ظهر «عويس» ماسح الأحذية ، وكان مسروراً يَضرِبُ صُندوقه الخشبيّ ، فسألتُه :

ما الخبر ؟

— خبرٌ عظيم جدّاً ... أخذوا كلب أسعد بك في عربةِ الكلاب ...

— يا شيخ ... !

— شاهدتُ ذلك بعيني رأسي !

ونالني شيء من الأسف ، ولكني لم أعِرِ الأمرَ كبيرَ اهتمام . واعتقدتُ أنني سأرى في غدٍ صديقي وكلبه يحتلانِ ركنَهما المختارَ .

وبعد فترةِ انقطاع ذهبتُ إلى القهوة ، فوجدتُ «أسعد بك» ودرتُ بعيني أبحثُ عن الكلبِ فلم أجده . وكانت عينا صديقي مربدّتين حائرتين ، ووجهه محتقناً . وحييته فرد علي في اقتضابٍ وصمت ، فلم أشأ أن أثقل عليه : وقصدتُ إلى مكاني وفتحتُ كتابي وبدأت دِراستي . ولكني ما كدتُ أفعل حتى سمعتُه يتكلم في لهجة شرسة ؛ كأنه يتحدّى إنساناً أمامه قائلا :

يأخذون الكلب ويطلبونَ مني جنيهاً نظيرَ إطلاق سراحِه ...

جنيها؟... هذا احتيال .. هذا نهب ... ما أسوأ هذه المصلحة !...

وبصق بصقةً كبيرةً ، ثم أتمَّ كلامه :

... مع أنى أفهمتُهم أنى طبيب ... بل رئيسُ أطباء الفرقة التاسعة التى قهرتِ العصاةَ فى الأبيَّض ودارفور ... رجلٌ مقامى معروف ، وماضىَّ مفعمٌ بجلائل الأعمال ... مصلحة رديئة لاتعرفُ أصحاب المقامات ... بعداً لها !

وأرسل بصقةً أخرى . وكان يتكلمَ دون أن يلتفتَ ناحيتى !...

ولكنى كنت متأكداً أن الكلام مُوَجَّه إلىَّ ؛ إذْ لم يكن فى القهوةِ سوانا . فرأيتُ من بابِ المجاملةِ أن أُعيرَ حديثَه اهتمامى ، وقلت :

جميع المصالح مختلة ...

فاحتدَّ فى كلامه وهو ينظر أمامه دائما ، وقال :

إلاَّ هذه المصلحة... إنها ليست مختلة فقط . إنها غير موجودة . أتصدق أنهم يرفضون شهادتى الرسمية بأن جيمى غيرُ مسعور ، وأنه ليس من الكلاب الضالة ، ويقولون إن الإجراءات يجب أن تأخذ مجراها ؟ ... إجراءات ؟ سأريهم كيف تتخذ أمثال هذه الإجراءات معى ومع كلبى .. سأريهم ...!

وضرب بشدَّة على المائدة ، والتفتَ إلىَّ هذه المرةَ وعيناه

ترميان بالشرر ، وقال :

لقد أرسلتُ إلى وزير الحربية اليوم عريضة لإخلاء سبيل كلبي في الحال ...

فأجبتُه على الأثر :

حسناً فعلت ! ...

* * *

وفي غدٍ سافرت مع لفيف من طلبة المدرسة في رحلة إلى الصعيد ، وقضينا هنالك أسبوعا كاملا نتنقل بين ربوعه متفرجين نرى آثارَه العظيمة .

وفي اليوم التالي لعودتي إلى القاهرة . قصدتُ إلى قهوتي المعروفة ، فرأيتُ « عويس » جالساً القرفصاء على الأرض بجوار إحدى الموائد وأمامه صندوقه ينتظر الرواد . فناديتهُ وسألتهُ على الفور :

ماذا جرى لكلب أسعد بك ؟

فابتسم وقال :

تعيشُ أنتَ !

— قتلوه ؟

— منذُ أربعة أيام !

— ألم يدفع أسعد بك المبلغ ؟

— يَدفع المبلغَ ؟ !... إنه يَرْضى أن يُعطيهم عينيه ولا يَرضى أن يَدْفعَ لهم الجُنَيْه !

وشاهدتُ « أسعد بك » آتياً يَتَوَكاً على عصا غليظة، ويسير في ثِقَلٍ وإعياء ، ولمَّا اقتربَ مني ابتسمَ لي ابتسامةً ضئيلة ثم جلَسَ ...

ولاحظتُ على وجهه شحُوباً وامتقاعاً ؛كأنه قريبُ العَهدِ بمرَضٍ خبيث ، وأشار إلى المقعدِ الذي أمامه وقال :

تفضلْ ... اجْلِسْ !

وجلست ، وبدأنا نتحدَّثُ في أمورٍ تافهة . وكانتْ لهجَتُه فاترَةً ، ونظراته فيهـا بعض الشُّرودِ . ولم يَنْطِقْ بكلمة واحدةٍ عن « جيمي » فعلمتُ أنهُ لا يُريد الخَوْضَ في هذا المـوضوع .

ثم خيَّمَ علينا صمتٌ ثقيل فاستأذنتُ وانكفأتُ إلى رُكني ...

ومنذُ ذلكَ الحينِ اختلفتْ مواعيدُ « أسعد بك » ، ولم أعُدْ أراه دائماً في القهوةِ كلما ذهبتُ ، وغير عادته في طلبِ القهوةِ السوداءِ التي كان لا يَحيد عنها ولا يَزيدُ عليها ، واستَبْدَلَ بها بِضْع كئوس من العَرَقِ ، وكان كلما حميَت الصَّهْباء في رأسِه اندفعَ يَتكلمُ في إسهابٍ مُمِضٍّ وبصوت مرتَفِع

كأنه يَصْرُخ أو يشتمُ ، وكانت مَوْضوعاته دائماً لا تَخرج عن سَبِّه مَصْلَحَةَ الطِّبِّ البيطرىّ وسبِّ العالم كله معها ، وكان يقولُ دائما : الدنيا كلُّها نهْبٌ فى نَهْب !

وبدأ يَدْعُونى إلى شُرْب الزَّبِيب معه ، ويقول لى : لا تَخْشَ ضَرَراً ، أنا طبيبٌ ، إن الزبيبَ مُقَوٍّ للدم ومثير للشَّهِية ... أحسن الشرابِ كلّه .

وأصبحَ مَجْلس « أسعد بك » لا يُطَاق ، فلم أكنْ أنعمْ معه بتلك الأحاديث العِذابِ التى كنتُ أجدُ فيها سَلوتى . ولم يكن يترُكنى أذاكرُ دروسى فى هدوء ، بل كان دائماً يقلقنى بصخبه المزعج ويضطرُّنى إلى الانصاتِ له وتحبيذِ كلامه . وكان إذا رآنى مقصراً فى الالتفاتِ إليه جاء إلى مائدتى ونقلَ شرابه عليها ، واحتلَّ مقعداً بجوارى ، وبدأ يصبُّ سَيلَ شكاياته من الحوادث وشتائمه للناس .

وحدثَ مرّةً أن جاءه صاحبُ القهوة بحساب الشهر — وكان من عادة « أسعد بك » أن يدفعَ الحسابَ جملة فى رأس كل شهر — فأخذ الورَقة من يدِ الرجل ، وألقى عليها نظرة عابسةً ، ثم صاحَ فى وَجهه :

اذهبْ من أمامى ، ان أدفع شيئاً ، كلُّكمْ لصوصٌ صَعَاليكُ ...

فاحمرّتْ عينا صاحب القهوةِ ، وقال له :

اللصوص والصعاليك هم الذين لا يدفعونَ ما عَليهم !

— اخرَسْ ! . . . أتعرفُ من الذى تكلمه ؟ ... أنا أسْعد بك الذى كان كبيرَ أطباء الفرقةِ التاسعة فى الجيش المصرىّ !

— وماذا يهمُّ ؟ ... أنا أريد نقودِى : ليس هذا الجنيهُ بجنيه مصلحةِ الطبِّ البيطرىّ الذى لم تدفعه إنقاذاً لكلبك . هذا جنيه ثمن طلباتٍ شربتَها من محلى !

ورأيت سَحنَةَ «أسعدبك» قد انقلبَتْ فأصبحتْ كسحنةِ النَّمرِ الهائج وقال وصوتُه يرتجِفُ :

ماذا تقولُ يا وَقح ؟ ... جنيهُ الطبِّ البيطَرىّ ؟ ... جنيهُ الكلبِ ؟ ... أتظنُّ أنى بخلت بالجنيه فى سبيل إنقاذِ كلبى ؟ ! .. أتجرُؤُ على هذا القولِ يالعينُ ؟ ... أنا أرضى أن أدفعَ مائة جنيه لا جنيهاً واحداً من أجلِه ، ولكننى لا أدفعُ مليماً ، نكايةً فى المصلحة !

ورأيتُه يَدسُّ يدَه المرتجفة فى جيبه ، ويخرج ورقة ماليةً ذات مائةِ قرش ، وينهالُ عليها تمزيقاً ، ويقول :

أتستطيعُ أنّ تقولَ إنه ليس فى مقدورى أن أدفعَ جنيهاً ؟ !

ثم قام وأنشبَ أظفارَه فى رَقبة الرجل ، وقامت بين كليهما

معركةً استدعى من أجلها رجالُ الشرطة ... !

* * *

وساءت أحوالُ « أسعد بك » ... فلم أعد أراه إلا مخموراً رثّ الهيئة ممزّقَ الثياب قويّ الشبه بالمشرّدين من مدمنى المخدّرات الذين نراهم فى الطريق يستجدونَ المارّة ، وكان لسانه لا يسكت عن حديث النقود ، وبخاصة الجنيه الذى لم يدفعه إنقاذاً لكلبه ، وكان يؤكّد لى فى حماس غريب أنه لم يدفع هذا الجنيهَ نكايةً فى مصلحة الطّبّ البيطرىّ ، وليفهمهم أنه ليس مغفّلا . وكان يَرْوى الحكايةَ لكل من يقع عليه بصره فى القهوة أو فى الطريق ، وهو يُهدّد ويشتم ، وإذا لم يَجدْ من يكلمه راح يحدّث نفسه محتدًّا وهو يلوّح بيده بحركات شاذّة .

وانقلبَ من شحيح متكالب على المال إلى مسرف متلاف ، يُنفق ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال ، وسمعت أنه كثيراً ما يذهب إلى مصلحة الطّبّ البيطرىّ ليطعمَ الكلابَ الضالة ، ويخرجَ لها رُخَصاً بمبالغَ لا يستهان بها . وكان يحرضنى دائماً على التبذير ، ويقول :

أنفقْ ما معك ، وابسُطْ نفسَك ... دنيا لا تستحق الاهتمام ... !

وحلّت الإجازة السنوية ، وانقطعتُ عن زيارةِ القهوة ثلاثة أشهر كاملة ، ولما عدت إليها رأيت كلَّ شيء فيها لم يتغيّر ، وكانت منضدتى المختارة فى موضعها بجوارِ الجدولِ تظلّلها أفنان الشجرة العتيقة ، فكأننى لم أفارقها إلا منذ ثلاثة أيام . . . واستقبلتنى الوجوه التى أعرفها كل : بابتسامته الخاصة .

والتفت حولى وأنا مشرِق الوجه ، أتصفّح الذكريات ...

وبغتة أظلّت نفسى غمامةٌ . وقلت على الفور لـ « عويس » الذى كان يمسح مقعدى فى ضجة وسرور ، ويهيء أدواته لمسح حذائى :

أين أسعد بلك ؟

فتوقّفَ عن عمله ، ورفع بصرهَ إلىّ ، وقد غاضت ابتسامته وانقطع ضجيجه ، وقال بلهجةٍ حزينةٍ موحشة :

ألم تسمع عنه شيئاً ؟ !

— كلاّ ... !

— لقد أرسلوه إلى المارستان ، كانت حالته فى المدة الأخيرة عبرة . وكنت أنا الذى أعتنى به ... !

— ما هذا الكلام ؟

— الحقيقة ما أرْويه لكَ ...

— وهل يمكنني أن أزوره في المارستان ؟

فَمَدّ « عويس » صندوقَه تحتَ قدمي ، وبدأ يمسح متباطئاً ، وقال في لهجة استسلام :

كلاّ يا سيّدي ... لن تراه ... !

ونكّسَ رأسه ... فنكّست رأسي ، وقد فطَنت إلى ما رمى إليه ...

قبلة الساق

ـــ يا ولد يا عبده ... يا عبده الكلب .. يا ملعون ... يا نجس !

كانتْ هذه النداءاتُ تصافح أذنَ «عبده السهتان» وهو متمدِّدٌ على الدكة الخشبيةِ المحطمةِ في حجرتِه القائمةِ بجوارِ الباب؛ كأنها لضيقها وحقارتِها كنٌّ من أكنان الدجاج ... وكانت الساعة لم تكدْ تبلغُ السادسة صباحاً . ظلتْ هذه النداءاتُ تداعبُ أذنه وهو في حالة بين اليقظة والنوم، فكانت تصلُ إلى موطن السمع من رأسِه؛ كأنها حديثٌ تلفونيٌّ آتٍ من بعيد، تطغى عليه ضجةٌ صاخبة . فيحسبُ نفسه يكلمُ أحد روادِ الملهى الذي يعمل فيه، وكانت عضلاتُ وجهه تتقلصُ وتختلجُ، وشفتاه تضطربان بغمغماتٍ غامضة، إذْ كان يشعر في حالتِه تلكَ بأنه هو الذي يصبُّ جامَ غضبِه بذلكَ الشتمِ والسبابِ .

وسرعانَ ما انقلبَ ذلكَ الحديثُ التلفونيُّ في حُلمِه معركة حاميةَ الوطيس في فِناءِ الملهى . فرأى نفسَه يصرعَ المديرَ

بِسَكِّينَةٍ عنيفة . ويختطف إحدى غيد الملهى المدَّاسَة بجبّه . .
وفى أثناء تلك الرؤيا المضطربة كان يتراءى له بلا رابطة
ولا تمهيد بين فترة وفترة وجهٌ عبوسٌ ذو ملامح ثائرة . ذلك
وجه « الحاجة فاطمة » ، صاحبةِ المنزلِ الذى يحتـــل فيه
حُجرةَ البوّاب .

وازداد الصَّخَب فى قوّة وعنف ، فاهتزّ جسمُ « عبده
الشهتان » اهتزازاً شديداً ، وأخذ جفناه يتحرّكان ، ونهض
برأسه وئيداً يتلفّت حوله . ففطنَ إلى مكانه من الحجرة
يحتلُّ دكته المحطّمة ... وراح يمسح عن وجهه العرقَ بِكُمّ
قبائه الأبيض — لبوس العمل فى الملهى — ورنّ النداء فى
هذه اللحظة ، فألفَى نفسه يعتدلُ فى دكته سريعاً ويجيبُ
بصوت مُتحشرج :

حاضر ...

— يا ولد يا عبده ... يا كلبُ .. يا غبيُّ ... يا وخيمُ ...
يا نجس !

— حاضر . . حاضر . . .

وقذف بآخر تثاؤبةٍ من فيه ، وخلع آخر تمطّيَة
من كتفيه ، ونهض مهرولاً بجسمه النحيل الضئيل ، وقامته
القصيرة إلى مسكن « الحاجة فاطمة » المُقابِل لحجرته ، ولم

ينسَ أن يطبَعَ على فمِهِ ابتسامةً كريهة ، وصاح :

صباحُ الخير يا ستّى الحاجة

ووقف على قيدِ خطوتين من الباب . فهو يعرف مكانه لا يتعدّاه ، فليس له أن يبلغَ الباب أو أن يمدَّ عينيه إلى ما وراءه ... ولاح له من جانب الباب طيف « الحاجة فاطمة » وهى مرتدية البياضَ على مألوفِ عادتِها ، ملثّمةً بالخمارِ الأبيضِ ينبسط على صدرها حتى يغطى يديها ، وسمعها تقول :

أين كنت يانجس ؟

ومد يده ليحييها فى غير وعى ، ثم ما عتم أن ردها إلى جنبه . إنه منذ التحق بالبيت شبه بواب ، لم يحدث أن لمست يده يدها الملففة أبداً فى الخمارِ الأبيض خلال السنوات الخمس التى قضاها فى خدمة البيت ، ولطالما سمعها تقول :

تنح عنى ... حاذرْ أن تنقض وضوئى !

ولما برزت له من جانب الباب سألها :

أية خدمة تبغين ياستّى الحاجة ؟

ـ ألا تعرف عملك يا نجس ؟

وكان على الرغم من تكرار كلمة « نجس » على سمعه ، واعتياده أن يتلقاها من « الحاجة فاطمة » لا يستطيع لها احتمالا ، بل يشعر بأنها ثقيلة الوطأة على نفسه ، فوقف يجمجم :

يا فتّاح ياعليم ... كلّ يوم نجس ... نجس !

— وهل أنت إلاّ كلبٌ نجس ؟... ما صنعَتك ؟... ألستَ خادم مرقص ملوّث؟... خادم موبقات؟خادمَ.. خمرٍ وتهتك؟... تقضي أكثرَ ليلكَ ساهراً غريقاً فى تلك البؤرةِ ، فلا تصحو من نومك إلاّ بمعركة ...

فرفع صوته قليلا ، وهو يُحدّق أمامه تحديقاً تائهاً ، وقال :

ياستى ... هذا نصيبى ... هذا مَقسومٌ لى .. نجس ... قدرٍ ... إن كان هذا يرُوقكِ فأنا فى خدمتكِ وإلاّ فاترُكينى وشأنى !

وكان مثلُ هذا الموقفِ على شدّته ، وما يتوقّع أن ينجمَ عنه من حدوثِ كارثةٍ فاصلة ، ينتهى دائماً إلى رضاً ووفاق ... فترات صمت ... تراجعٍ من الجانبين.. كلمات عتبٍ ومؤاخذة رفيقة ... تبادل ابتسامات متكلفة ...

وإنما كان ينتهى الموقفُ إلى هذه النتيجةِ المسالمة ، لأن كلا منهما يجدُ نفسه لا غناءَ له عن صاحبه ...

كان « عبده السهتان » الموظفُ الليلى بملهى « نزهةِ الأرواح » يقضى أكبرَ نهارهِ شبهَ بوّاب فى منزلِ « الحاجةِ فاطمة » راضياً عن هذا العمل بما يصيب من بقايا الطعام ، « ومن المغالطاتِ فى حسابِ ما يشتريه لصاحبةِ المنزلِ ، ومما تعطيه

إياه « الحاجة » من أجر شهري . فأما حاجتها إليه فلأنه حلقة الاتصال بينها وبين العالم الدنيوي ، لاتستطيع قضاء شيء بدونه . فهي مقيمة وحدها معتزلة الناس لاتزور ولاتزار ؛ ولا تبارح عتبة الدار إلا مرة واحدة في العام ، تنتقل فيها إلى القطار في طريقها إلى حج بيت الله الحرام ... فأما عملها في ليل أو نهار فهو الصيام والقيام والتعبد بالتلاوة والتسبيح ، لا تفتأ ذاهبة آيبة بين مكان الوضوء وسجادة الصلاة ... وكل ما يُشعر الجيران بوجودها هو قعقعة القبقاب وحدها حين تذهب أو تئوب . وليس يعلم أحد ماذا يدور في مسكنها وعلى أي نحو يكون ، حتى إن « عبده السمتان » أقرب المقربين إليها لا يستطيع أن يعرف من دخائل هذا المسكن كثيراً أو قليلا ... وقد أشرفت « الحاجة فاطمة » على الستين ، تميل بشرتها إلى البياض ، مكتنزة الجسم ، تسير متئدة الخطا كأنها تتخطر ، وهي تنفق على نفسها من كراء منزلها العتيق الذي تحتل منه الطبقة الأولى .

ومدت « الحاجة فاطمة » سفطاً إلى « عبده السمتان » فتناوله في حذر . ووجد في قاعه قطعاً من النقود ، ووقف يتلقى مطالب السيدة من السوق ، ونصائحها له أن يكون بصيراً يقظاً لا يتغفلها ولا يدع الباعة تتغفله ...

وخرج الرجل يحمل السفط في يمينه ، وسار متباطىء

الخطو والضيق آخذٌ منه كلَّ مأخذ . واستقبل الشارع فما إن صادفه عمودٌ من أعمدة المصابيح حتى وجد نفسَه يستند إليه ويلقِى السَّقَطَ بجواره مُرْخياً لأفكاره العنان ...أخليقٌ هو بأن تطلقَ عليــــه « الحاجة فاطمة » لقبَ النَّجس ؟ ... الحقُّ أنه خادمٌ وَضِيع فى مَلهى غير مشرَّف تعْرِض فيه ألوانٌ من الفَنِّ الرخيص الرَّقص والغنـاء المبتذَل ، تنطوى على تهتُّك وإزْراءٍ بالفضيلة ... ما عمله على وجه التخصيص ؟ ... إنه لا يستطيع له تحديداً ، فلا هو عامل مخصصٌ للتِّلفون ، ولا هو غلام مقصف ، ولا هو أحد عمَّال المسرح ... إنه لمفروض عليه أن يشترك فى كلِّ شىء ، ولكنه فى الواقع لا يعمل شيئاً مذْكوراً . تارةً تطلب إليه إحدى الغيد أن يستدعى لها سيَّارة ، ومرةً يرغب إليه أحد روَّاد الملهى فى شراء علبة من لفائف التبغ .. وآناً يكلِّفه مدير الملهى نقل المقاعد وترتيبها على نحوٍ مرسوم ؛ وهو مع كل هذا سفير الغرام بين المحبِّين ، يتنقَّل بين الموائد حاملاً رسائل شفويّة أو تحريرية تتضَّمن أنباء المواعيـــد وتباريح الأشواق ... وطوراً يجد نفسه قد اندسَّ فى مشاجرةٍ ينصر فئةً على فئةٍ دون أن يدْرك لماذا يناصر أو يعادى ؟ ... وطالما خرج من هذه المشاجرات مشجوج الرأس دامِيَه ... إنه يعيش منذ أعوامٍ فى هذا الملهى المعطَّر دائماً بأريج المرأة الفوَّاح ،

الحافل دائمًا بطيفها اللألاء ، المتجاوب أبداً بصوتها ضاحكةً أو شادية ً أو عابثة ، المهـتز أبداً بحركاتها لاعبة ً أو راقصة ً أو متبخترة !.. .

وتخايلت على وجهه ابتسامة بلهاء ، وهو فى وقفتـه بجوار عمود المصباح ، يعرض فى مخيلته تلك المناظرَ الفاتنة لغانيات الملهى ؛ ولكن ما موقفه هو من ذلك كله ؟...إنه ليس أكثر من دعامة من دعائم هـذا الملهى ؛ بل لعله أشدُّ ذلة وبؤساً . إن الدّعامة لتمرُّ بها المناظرُ فلا تحس لها دبيباً ولا تشعر لها باستجابة، أما هو فتمرُّ به هذه المناظر فتلهبُ قلبه وتثير وجدانه وتوقظ فيه شتى الأحاسيس ، فتظل تساوره دون أن يجدَ لها ما يَشفى الغليل ... إنه ليذكر أن غانية طلبتْ إليه منذ يومين أن يأتى لها بمعطفها لجاءها به ، وكان وهو يحمل هذا الرداءَ الأملسَ الناعمَ المشبَعَ بعبق مسكر ؛ كأنه يحمل بين ذراعيه صاحبته بجسمها البضّ وشعرها الفينان ... ولما ناولها إياه قالت له : « أصلِحْ الحذاءَ فى قدَمى يا عبده ... » فهبط من فوره على حـذائها ، وأمسك بالقدَم العارية تموجُ بلونها الوردى ، وجعل يقلّبها وهو يرنو إلى أصابعها اللامعة بخضابها الأرْجوانىّ . وسَبَحتْ عيناه إلى السّاق البديعة الملْساء . فسرت الرّعشة فى يده ، وألفى وجهه يتدانى ، وفمه يتحفز لاختلاس قبلةٍ من تلك المفاتن .

وما كاد يهمُّ بذلك حتى أحسَّ بدفْعة فى ظهره أسقطته، وسمع قائلا يقولُ له :

دع الحذاءَ ياغبىُّ . . . أنت لاتحسِنُ مثل هذا . . .

فتنحَّى « عبده السهتان» عن مكانه ، وجثاَ الرجل يصلح للغانية وضع قدمها فى الحذاء ، ثم لمحه وقد انتهب قبلة مترعة من ساقها الرشيقة . . . وأرسل « عبده السهتان » من أعماق صدره زفرةً جيَّاشةً . . . محظورٌ عليه أن يستمتع بمثل هذه القبلةِ ، على حين أنها ميسورةٌ لغيرِهِ من أمثال ذلك الرجل . . . وصعَّد بصره فيه فإذا هو « أبو النبايل بك » الشيخ المتصابى الثرىُّ الذى قضى أطايب عمره فى صلاح واستقامة ؛ حتى أشرف على الستين ، فإذا بالشيطان يسوقه فى معتركِ الشَّهوات ، فيتبذّلُ ويَخلَع ثوبَ الوقار . . .

إنه « أبو النبايل بك » ذلك الذى يختلف إلى الملْهى كلَّ ليلة ولا يظهر فى ليلة إلاّ بحلة قشيبة لم يظهرْ بها قبلُ . هو صاحب تلك المحْفَظةِ السّحْريّةِ التى تخرج منها الأوراق تباعاً دون أن ينقطعَ لها فيْض ، هو الذى إذا جلس إلى خِوَان الشراب تهافتتْ عليه أسراب الغوانى يُحطنه بسواعدهن الرخْصَةِ ، وتتعالى حوله أصواتهن بالمرح والدُّعابة . . . على حينِ أنه هو « عبده السهتانَ » لا عمل له إلاّ أن ينظر ويَتَنَهّدَ !

واعتدلَ فى وقفته بجوار عمود المصباح فى الشارع ، وقد أيقظه من أخيلته صوتٌ انبعث من بوق سيارةٍ تعدو ، فأطار من رأسه تلك الذكريات المتداعية ، وألقى نفسه يرسل فى الهواء بصقةً ، ويردد :

« مكان سَيء السمعـــة ... تهتُّك ... دعارة ... قبحاً لتلك الحيـــاة ! ... » إن « الحاجة فاطمة » لم تَعْدُ الحق حين وصفته بأنه نجسٌ قَذِرٌ ما دام يَحْمِل فى هذا المكان ...

وطأطأ رأسه ، والتقط السَّفَط ، ثم انطلق إلى السوق .. وجاز فى طريقه بقهوة ، فدخل فيها وألقى السفَط ، وجلس يتناوَل فَطوره كوباً من الشاى وجانباً من الكعك ، ثم أشعل لفافةً ، وراح يجذب أنفاسها فى غير اكتراث . وأمال بصره إلى سفَطِ « الحاجة فاطمة » قابعاً تحت قدمه يمثِّلُ الطهر والوقار والتقوى ... وطال إليه تحديقه ... إن صاحبة هذا السفط مكتوبٌ لها نعيم الجنة تخلد فيه ، أما هو فمكتوب له عذاب النار وبئس القرار ...

وركل السفط ركلة ألقته بعيداً ، وما لبث أن لاح لمخيلته شبح « أبى النبـــايل بك » ذلك الشيخ السادر فى مآثمه ، المتهتك فى شيبته بعد حياة عفة ونقاء ، وتمثله وهو يشاركه فى مكانه من الجحيم ، فطافت بفمه ابتسامةٌ ، وهمهم :

« العبرة بالخاتمة ياحاجة فاطمة ! ... »

ونادى بخادم القهوة ، فدفع إليه ثمن الشاى والكعك من نقود سيدته .. ومرّ به بائع لفائف التبغ فاشترى علبة ودفع ثمنها من تلك النقود أيضاً . . .

وكان وهو يدفع هذه النقود يتجه بطرفه خلسة إلى السفط ، ثم يزورّ عنه سريعاً ! ...

* * *

كان الملهى فى مساء ذلك اليوم غاصًّا بالرُّواد ، كله عبث صاخب ، عبث فى النور ، فى الشراب ، فى الرقص . فى الكلام ، فى الضجَّة . . . عبث فى كل شىء ...

إنها حفلة ممتازة من حفلات السَّنة !

وانتشرت الغانيات فى الملهى تنساب بين الموائد انسياب الظباء بين الخمائل ... وكانت لفائف التبغ حيرى متعبة وهى تعلو وتهبط فى الأيدى رائحة غادية ، ثم يقذف بها وهى فى جدَّتها لم يستوف تدخينها ، فتطؤها الأقدام لاهية غير عابئة ... وتراءت الخصور تتثنى . والنهود تترجح على أنغام « الجاز » والغناء يرتفع فيختلط بالضجيج متزايلا فيه ، واشتدت الزحمة ، وكثر الطلب لأقداح الخمر ، واختلط السُّقاة بالرُّواد ، فلم تعد تميز بين خادم ومخدوم ؛ حتى لقد ترى الصوانى طائرة فوق الرءوس ذاهبة آيبة بلا هوادة ولا رفق كأنها وحدها تسير ... كل هذا

و « عبده السهتان » بجـوار رفيقه القديم عمودِ الملهى يرى ويتحسر. وعيناه تتنقلان بين الأقدام الفتّانة والسيقان العارية، يطوفُ بخاطره حادثُ الغانية التى همّ بتقبيل ساقها وهو يعالج وضعَ قدمها فى الحذاء . . وكان يخادعُ السقاة والروّادَ فيحتسى صُبابات الكئوس ، أويهبط على الأرض يجمع اللفائف فيستمتع بأنفاسها التى زهدَ فيها العابثون . . .

وغادر « عبده السهتان » الملهى بعد منتصف الليل ، وقصد إلى حانة حقيرة يستكملُ فيها حاجته إلى الشراب ، واندفع يَعُبُّ من خمرها المحرقة ، وخيالُ الملهى بمشاهده الخلابة يملأ رأسه ويتراقصُ أمام عينه . . . أطيافُ المرأة بسيقانها العارية ، وأقدامها الرشيقة التى لاتهدأ لها حركة . . وما إن فرغت نقوده حتى حمله صاحبُ الحانة ودفع به إلى الطريق ، وبعد تجوال هنا وهنـالك مترنحاً متساقطاً احتواه وكرهُ العتيقُ ، فرمى بجسمه على الدكة الخشبية ، وما لبثَ أن غشيه سباتٌ ثقيل .

وفى صبح اليوم التالى ، والساعةُ قـد بلغتْ السادسة ، بدأ يتعالىَ أمام حجرته هـذا النداءُ :

يا ولد يا عبده . . . يا عبده الكلب . . . يا نجس !

وكانت الألفاظ يزاحم بعضها بعضاً متجمعة حولَ حجرته تحاصرُها وتهزُّ بابها هزّاً عنيفاً ، وما لبثتْ أن اقتحمتِ البابَ

وتدفقت تصارعُ أذنىْ « عبده السهتان » وكان فى ذلك الوقتِ أسيرَ حلم تتراءى فيه غانية الملهى تمدُّ له ساقها ، ليصلحَ وضع قدمها فى الحذاء ، وهى تغمزُ له بعين مسترخية ، وتبادله ابتساماً بابتسام ! . . . ولكن صخبَ الملهى تزايدَ بغتة ، وظلت الضجة تعلو ، ولفظة « نجس » تتطايرُ كالشرَر فى هــذا الجوِّ الثائر .

و « عبده السهتان » يتقلبُ فى فراشه دون هوادة ، وكاد يصرخ ليسكت الضجّة ، فوجد عينيه قد تفتحتا محاقتين ثم ألفى نفسه يصيح بصوت جهورى :

حاضر . . . حاضر . . .

ونهض مهرولا ينفضُ النوم عن جفنيه ، ورأسُه ما برحَ مثقلا بما عبَّ فى ليلته من شراب ، وراح يهمهم فى زمجــرة مكتومة ، ودلفَ إلى باب مسكنِ « الحاجة فاطمة » ، وعــلى فمه ابتسامته المطبوعة ، وإشراقه المتصنع ، ووقفَ على قيدِ خطوتين من الباب ، وقال وهو يمسحُ لعابه المتسايلَ :

أية خدمة تبغينَ يا ستى الحاجة ؟

وتخايلَ شبحها من جانبِ البــاب ملففةً بالبيــاض ، فراح يسارقها النظرَ ، فتجلىَّ له جسمها المكتنز ، ورأى قدميها الناصعتين تملآن القبقابَ . وسمعها تقول :

ألا تعرف عملكَ يا قذرُ ؟ . . . عملك الذى تأخذُ عليه أجركَ ؟

أليست اللقمةُ التي أمنحكَ إياها هي التي تقوتكَ يا نجسُ ؟!

واندفعتْ تطلقُ عليه قذائفَ السباب متراصة حامية ، فحدّق فيها ، ثم صاح :

كفاكِ شتما . . . ماذا تظنين نفسك ؟!

— أتذنب ثم تتوقحَ وتتبجَّحُ يا قليلَ الأدب ؟

— صوني لسانكِ عن هذا الكلام . . . وإلاّ . . .

— ماذا يا كلبُ ؟ . . . ماذا يا نجسُ ؟ . . .

ورفعت السّبَط في يدها ، ثم قذفتْ به في وجهه ساخطة ، ولكنَّ اندفاعها وهي تقذفُ بالسفطِ جعل القبقابَ ينزلقُ عن قدمِها ، فتظهرُ القدم جلية أمام عين الرجـــلِ ، وإذا بـ « الحاجة فاطمة » تفقد تماسكها وتوشكُ أن تهوىَ ، فعجل إليها « عبده السمتان » مارقاً من الباب . فأمسكَ بها يريد أن يحميها من السقوط ، فتهاوت عليه بجسمها البدين : فسقطا معًا ، وقد التوتْ قدم « الحاجةِ فاطمة » فردّدَتْ متألمة :

رجلي . . . رجلي . . .

ونهضَ الرجل ليرى ما أصابها ، وامتدت يده إلى قدمها يتحسسها ويدلكها وأحس بها ناعمة الملمس ريَّانة الجوانب . . وزاغ بصره ، واضطربت أخيلته ، فلم يعد يميز أية قدم هذه التي بين يديه ؟ . . . وأخذت المشاهد تتشابك في رأسه المثقل بآثار

الشراب ... حادثته مع غانية الملهى ، « أبو النبايل بك » الشيخ المتصابى الثرى ... الليلة البارحة وما كان فيها من عبث ومجون ...

وكانت يده ما فتئت تدلك قدمَ « الحاجة فاطمة » فى حنان ورفق ، وخُيِّلَ إليه أنه يسمعُ صوتها وهى تقول :

تَنَحَّ عنى : لا تمس قدمى يا نجسُ !

ووثب فى مخيلته مشهدُ «أبى النبايل بك» وهو يتبوأ معه مقعده من الجحيم ، وقد تدانى منهما شبحُ «الحاجة فاطمة» فى طريقها إليهما ...

وإذا بضحكة صاخبة تنطلق من حلقه ، فيهتز لها جسمه ...

وإذا بعينيه تلتهبانِ وتسبحانِ إلى ساق « الحاجة فاطمة » ...

وإذا به ينقضُّ بفمه على الساقِ الناصعةِ الملساءِ وقد طوقها بيديه ، وشفتاه تختلجان ...

وشاع صمتٌ عميق لم يكن يشوبَ صفوه إلاَّ بعضُ زفرات وتنهدات ... !

« أبو علي » وزجاجة الكونياك

ترك « أبو علي » الأستوديو ، وداف إلى الشارع يتخطر في مشيته ، ويتعالى بقامته القصيرة ، متلفتا يَمْنة ويسرة إلى السابلة حوله ، يجود عليهم بين الحين والحين بنظرات خاطفة من نظراته المترفعة المتعاظمة .

لقد أكمل اليوم دوره في فلم « النجوم العشرة » وهو دور على قصره مفعم بأكبر الحوادث خطرا ، وأعظمها شأنا . يمثل مشاجرة عنيفة تقع في قهوة بلدية ، وكان دوره ينحصر في أن يتأثر « نزاكة » ـ النجمة العالمية المصرية ـ فيطارحها الغزل على قارعة الطريق . فيخرج له من القهوة « أبو عفّان الباطجيُ » ـ النجم المصريُ العالميُ ـ فينهَرَه ... وسرعان ما تحتـــدم المشاجرة العنيفة التقليدية ، ثم تنتهي على أحدث الطرق الفنية الأمريكية ! . .

لقد نال « أبو علي ثلاثةَ جنيهاتٍ ، أجراً على قيامه بتمثيلِ دَوْرِه . وهي مكافأة في الحق بَخْسَةٌ ، قبلها تضحيةً منه في سبيلِ الفن ... ذلك الفنّ الذي وقف حيـــاته على خدمتـه ،

والعمل على رقيـــه ، لا يبتغى من وراء ذلك جزاء ولا شكورا ...

سار « أبو على » فى الطريق منتفخ الشدقين نافرَ الأوداج . لقد كان انتصاره فى الواقع عظيما ، ولكن لكلّ انتصارٍ ثمنَه . إنه يَكْتم مابه من ألم صارخ ، ويتحسسُ خفيةً رأسه وصدرَه وساقيْه وما فيها من كدَمات وجراح . ولكن كلّ هذا هينٌ مَنسور ... حَسْبُه أنه استطاع بحيلةٍ طريفةٍ أن يَطرَح « البلطجى أبا عفّان » أرضاً ، وأن يجعلَه يتمرّغُ فى حمأة الطريق ...

وداعبَتْ أصابعُه المحفَظةَ العامرةَ بالورَقات المالية الثلاث ، فهبّت على الأثر أمامه عاصفة من المطالب والرّغبات . وما أسرع أن قفَزَتْ المشروعاتُ الفنّية إلى خاطره تتدافَع وتتسابق ، ففسح لها أرحب الأمكنةِ وأطيبها ... ومرّ بباله عفواً مطالب عتيد لأمّه ، حلم قديم طالما رَغبَتْ فى تحقيقه ، ولكنه ظلّ عنها بعيدَ المنال ، ذلك هو الحصولُ على كَيْلة من الأرزّ وبضعة أرطالٍ من الزُّبْدِ لكى تنعم بمذاقها فترةً من الدهر . . . وبرزَ أمامه حانوتُ بقال ترصعُ وجهته أشتات من السلع المغرية بحسنِ رصفها وتنسيقها ؛ فخففَ من سَيره ، معتزماً أن يدخل الحـــانوت ليشترى لأمّهِ ما طمعت فيه . . .

إن للأمومة حقاً يجبُ أن يرْعاه ... وما كاد يخطو صوب الحانوت حتى تراءت له « قهوة الفن » بموائدها العتيقة الجاثمة على طوار الطريق ، وحول كل مائدة شرذمة من زملائه الفنانين يناقشُونَ في صخبٍ وشَغَب . وتَضوَّعَتْ روائحُ الخمرِ تداعبُ خياشيمه العَطشَى ، فقد مَضَى عليه وقتُ طويل لم يَطْرُق فيه هذا العُشّ الحبيبَ ، فأحس الصَّبْوَةَ تعتلج في قلبه وتَثُور ...

وحَثَّ خطاه نحوَ القهوةِ ، وما هي إلاّ أن طوَتْه في غمارها المتدفّقة ! ...

واحتل « أبو على » إحدى الموائد ، ودَعا بالشراب ، فالتف الأخدانُ حوله ، فانطلقَ يُحَدّثهم عن فلم « النجوم العَشرة » ودَوْرِه فيه ، وخاضَ في ملاحظاته ونَقَدَاته . وكان يَعُبُّ من « الكونياك » عَبَّ من استحر أواره ، والأخدان يحيطون به محتفين متهللين ، وزجاجاتُ « الكونياك » تتوالى ، والكئوسَ تصْعَدُ مترعةً إلى الشفاه ، وتهبط فارغة إلى حافةِ المائدة ، والضجة تتعالى ، وقهقهة « أبي على » تجلجل مُجَلْجِلَة في سماء المكان لا يقرُّ لها قرار ...

وما كاد الليل ينتصف ، حتى نهض « أبو على » يودِّع رفاقه ، ودفع ثمن الشراب كاملاً في سخاء وإمارة . وهو يَنْهَر الساقى

ويزجره ... نهض يترنح غير مكين فى وقفته. فهُرع إليه الصبيُّ ماسح الأحذية ينفض عن حذائه المتغضّن المتآكل ما علق به من تراب ... فرمقه بنظرة شزْراء، وغمغم قائلا وهو يقذف إليه بقطعة من النقود :

اذهبْ يا ولد فأحضرْ لى عربةً ...

— على عينى ورأسى يا بك ...

ولم يكد الغلام يستدير على عقبه خارجًا حتى شعر بقدم «أبى على» تدفعه بغلظة فى ظهره فانكفأ على وجهه، وانبعث الأستاذ بجعجع بضحكةٍ جبّارة موصولة الحلقات ... ووقع بصر «أبى على» على زجاجات «الكونياك» متراصةً على المنضدة تلتمع فى وضاءة وسحْر ؛ كأنها الغوانى الفاتنات يتخايدْن على المسرح يعرضْنَ على النظارة فتونَ البهيج، وفطن إلى أن إحدى الزجاجات ما يزالُ بها بضعُ جُرُعات، فغافلَ الجمع - أو بدا له أنه قد فعلَ — واجتذبَ الزجاجةَ فدسّها فى جيبه ... وخرج يتهادى فى خُطاً متعثرّة، فألفى العربةَ تنتظرُه فصعد فيها وانحطّ على مقعدِها، فغطس فيه فلم يظهر منه إلاّ قدمان قدار تفعتا واستقرّتا خلف مقعد السائقِ ... وسُمع صوته يصيح فى حشرجة :

إلى سيدنا الحسين يا أسطى ...!

وجعلت العربة تجرجرُ بحصانيها الأعجفيْنِ المجهدَيْن

وسائقها المهدّم المتجمّع على مقعده العالى العتيق ، وراح « أبو على » يترنّمُ بمختلف الأناشيد ، تارةً يعلو بها مصوّتاً ، وتارة ينزلُ بها إلى أدنى درجاتِ الإيقاع ... وعيونُ السابلة تقتحمُه فى فضول ، وسوط السائقِ ينكمشُ منطوياً على نفسه ، ثم لا يلبثُ أن ينبسطَ فى فرقعة مدوّية ، كأنه يكملُ النغمة فيما يترنمُ به الأستاذ من غناء أصيل .

وانتهى المطافُ بالعربةِ أخيراً إلى « سيدنا الحسين » ، ونزل « أبو على » وقد أفرغ ما فى جيبه فى يدِ السائق ، وتباطأ برهةً فى سيرِه حتى لا تفوته كلماتُ الشكرِ والاعترافِ بالجميل ، يغدقها السائق على مسامعه ، ولكنه سمع الرجلَ يصيح متسخّطاً متبرّماً فاشرأبَّ إليه مهتاجاً ، وقد تنفخَ فى وقفتِه ، وجعل يجأرُ بقولِه :

أتحسب أيها الوضيعُ أنك قادرٌ على أن تتغفّلنى ، وتنالَ منى مالا تستحِقه ... لا يستطيعُ أحدٌ كائناً من كان حتى الجنُّ الأزرقُ أن يستخفَّ بى ويهزأ ...

وطال النّقاش ، وتشابكت الأصواتُ فى ضوضاء تعكرُ صفوَ الليل الوادعِ المستنيمِ ، وسمع صوتُ قارىء يرتلُ آىَ الذكرِ الحكيم على مقربةٍ من المتشاتمين ، فأمسَكا ... وغمغم « أبو على » قائلا :

أما تستحى أيها الرجــلُ أن تعلى صوتك على صوتِ القرآنِ الكريم ؟ !

وأيقنَ السائقُ أن ليس ثمة حيلةٌ تجــدى مع هذا القــزم الصخّاب ، فاستدار بعربتهِ ، وانبرى يفرقعُ بسوطه على ظهرى حصانيه الأعجفين ، وهو يبرطمُ لاعناً الزمن وأهله ...

وانحدرت العربة تجرجرُ فى منعطفاتِ الطريقِ يطويها الظلامُ البهيم ...

ومضى « أبو على » فى الشارع يتخايلُ فى مشيته ، وقد دسَّ يديه فى جيبه ، وأبرزَ صدرَه وعلاَ بهامته ... وعرَّج فى مسيره على القارىء وهــو على حاله يرتلُ آيًا من الكتاب العزيز . فوقف قبالته يستمع ، فما ينتهى القارىء إلى مقطعٍ حتى يعجل « أبو على » بقوله :

الله ! ... الله ... !

ولمحَ يدَ القارىء تمتدُّ طلبا للعطية والمسكنة باديةٌ عليه . والحاجةُ تفصحُ عن نفسها فى أسماله البالية ... فتحركت الشفقةُ فى قلب « أبى على » وثارت أريحيته ، وعقد عزمه أن يهبَ لهذا القارىءِ أسخى عطيةٍ تنقذُه مما به من بؤس وضر ، ابتغاء مثوبة الله ورضوانه ، فرفع بيده إلى جيب صداره ينقب ويفتشُ ، فلم يجدْ شيئاً . فبحث فى مختلف جيوبِه الأخرى وقد أخذ منه

العجب كلَّ مأخذ ، فأيقنَ أنها خاوية جميعاً ... أيكون الحوذيُّ قد سلبَهُ ماله؟.. وهمهم في حيرةٍ يستمطرُ اللَّعناتِ على ذلك الوغدِ الزَّنيم ...

وكان القارئ يسترسلُ في ترتيلِه متحمِّساً ، ويده تمتدُّ أكثرَ من ذي قبل مهتزَّةً تستعجلُ العطاء ...

وعاد « أبو علي » إلى زَوَايا جُيوبه ، وخفايا ثيابه ، يَتَحَسَّسُ ويتلمَّسُ . فاصطدمت يده بزجاجةِ « الكونياك » القابعةِ في ركنِها الكمين ، فانتزعها ، وأخذ يتفحَّصُ البقايا في قرارَتِها .

وطالت وقفته ، يتأمَّلُها ويُديرُها بين أصابعه ، واختلجت شفتاه اختلاجةَ الحنين ، وتجشَّأ طويلا ، ثم اشرأبَّ إلى السماءِ وقد أشرقَ وجهُه بإيحاءٍ عميق ، وعزمٍ وَطيد .

وفي حركةٍ تمثيليةٍ رائعةٍ امتدَّتْ يدُه بزجاجة « الكونياك » إلى القارئ ، وارتدَّ يتمثلُ في خاطرِه أن العملَ الصالح لا بدَّ فيه من تضحيةٍ بالنفس أو النفيس ... !

وانكفأ « أبو علي » راجعاً إلى طريقِ بيتِه ، وهو راضٍ جَذْلانُ ، مطمئنُّ الضميرِ بعمله الكبير ...

وانبعث يُخْرِجُ من فمِه صَفيراً يُوقِعُ به أحدَ أناشيد « النجومِ العشرةِ » ...

الطابور الخامس

تَرَكَ الشاويشُ «أحمد فرقع» دارَ شرطةِ «السيدة» حيث انتهت نوبتُه فيه، وسار في الطريق بجسمه الممتلىء القصير، كأنه كرةٌ تتدحرج، ميمماً شطرَ «السيوفية» ليحظى بجلسة مريحة في قهوة «زينة المدينة» على مألوفِ عادته كل يوم.

لقد قضى النهار بأكمله يعملُ عمله المُضني يتلقى الأوامر من رؤسائه، ثم ينفذها في مخلوقات الله من الباعة الجوالين، والمستجدين، وغلمان الأزقة. فرجع أبحَّ الصوت من شدةِ الصياح، متعبَ القدمين من الرواح والغدوّ، قياما بالواجبِ الملقَى على كاهله. وكان على الرغم من إجهاده مشغولَ الفكر بموضوع غامضٍ لم يهتدِ إلى كشفه؛ وهو موضوع «الطابور الخامس» فقد طال التحدثُ به في دار الشرطة، وكثُر في شأنه لغطُ الرؤساء، سمعهم يتباحثون فيه ويتجادلون في جدٍّ واهتمام. تارةً همسا، وطوراً جهراً. وخجلَ أن يسألَ أحداً عن هذا الطابور، لئلاّ يتهمَ بالجهل، وتثارَ حوله عاصفةٌ من السخرية كما وقع له قبلاً حينما أراد أن يستوضحَ من بعض رؤسائه

حكاية الألغام المغنطة !

دخل الشاويشُ « أحمد فرقع » قهوةَ « زينه المدينة » ، وأخذ يحتسى شايَه الأخضرَ قدَحاً إثْرَ قدَح ، وقد استلقَ منتفخاً على كُرْسيِّه يقرْقِرُ بنارجيلته ، وأزاح طُربوشه عن جبْهتِه ، فلم يعدْ يغطى إلاّ مُؤَخَّر رأسه ، وبسط جريدة الأهرام ، ومضى يطالعها ، أوعلى الصحيح يقلّب فيها النظر ، ويعبر عناوينَ المقالات ، فصادَفه عنوانٌ بالخطّ العريض :

« الطابور الخامس وضرورةُ مكافحة رجالِ الأمن له » ...

فهرش رأسه طويلا ، ثم عاد يقرْقرُ بنارجيلته .

وجاءه نفَر من أصدقائه — أخلاطٌ من أشباه المتعلمين — فما كاد يستقرُّ بهم المقامُ حتى انطلقوا يثرثرون فى مسائل الحرب ، وما كسَبتْه الدُّول وما خسرته ، وأدْلى كلُّ فرد برأيه فى مستقبلها ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى « الطابور الخامس » فأرادوا أن يتبيّنوا رأىَ الشاويش « فرقع » فرمقَهمْ بنظرة متعالية ، وابتسم ابتسامةَ تحفظ ، ثم أخذ يقهقه فى وقار وهو يفتل شاربَه الغليظ ، فقال أحدهم :

لايريد الشاويش « فرقع » بالطبع أن يتكلّمَ أمامنا عن سرّ المهنة !...

فانطلقتْ قرْقرَة النارجيلة جهيرةً متحمّسة تجيبُ المتحدّث

بدلا من الشاويش الكتوم !

قضى الشاويشُ سهرته فى قهوة « زينة المدينة » وهو يحس راحةً ونشاطاً ، ومضى صوبَ منزلِه ، ولم ينسَ طبعاً أن يشترى شمّامةً طيّبة من بائع جوّال ، تأبّطها فى زَهْوٍ وهو يضرب الأرض بنعليْه الثقيلتيْن فى خطُوات متزنة .

دخل الشاويشُ داره فاستقبلَته زوجه « روايح » بقَدها السمْهرِىّ ، ووجهها الفاتن ، وابتسامتها المتألقة، فشاعتِ الغبطة على أساريرِه ، وقال لها وهو يناولها الشمّامة :

أوحشتنى ، ما أطول النهار علىّ وأنت غائبة عنى !

فقالت فى دلال ظاهر ، وهى تضَعُ الشمّامة جانبا :

وأنتَ أيضا لقدْ أوحشْتَنى ، إنى أفكرُ فيكَ طول النهار ، وأقـــولُ :

ماذا يَعْمَلُ يا تُرَى ؟ !... الدنيا كلها متغيِّرة ، وكلامُ الناس يدعو إلى القَلق . . . أدعو الله أن يُطَمْئنَنى عليك . . . أنتَ عندى بالدنيا ... !

— لا تخافى علىّ يا روايح ... أنا لها ... !

— صحيح يا حمودة يا سَبُع الرجال ...!

وراح الشاويشُ « أحمد فرقع » يتأمّلُ وجهَها طويلا وهو صامت ، ثم عاد يقولُ مغمغما :

ترى ماذا عملتِ طولَ النهارِ يا روايح ؟

فقالت وقد زادتْ من تَدَلُّلِها :

عملْت الذى قلتَ لى اعْمَليـــه !

— صحيح ... ؟ !

— ورأسكَ الغالى ما خرجتُ من البيت !

— والحاجات ، من أتى بها من السُّوق ؟

— جاءت بها حلويات بنتُ الجيران كما أمرْتنى ...

— والشُّبَّاك ؟

— والله لم أقتربْ منه ، فقدتُ عينىَّ إن كنت كاذبة !

— تسلمُ عيونك ... ولكن ... ربما يمكن ...

— ماذا يمكن ؟... أقسمُ بالله إن يدىِ هـــذه لم يرها أحد غيركَ يا مؤمِنُ !

— حقـًّا ، ألم يرَها أحد غيرى ؟

— لا والله ، ولا أطرافَ أصابعى !

فاحتضنها الشاويشُ « فرقع » ، وهو يكرِّرُ قوله :

يا روايح القلب ! . . . يا روايح النفس ! . . . يا قطعةً من مُهْجَـــتى !

... وجىء بالشَّمَّامة ، فوضعَتْ فى صِينية وَسْطَ الحجرة ، وجلس إليها الزوجان ، وأخذا يقتطِعان منها ، ويلتهمان إلتهاما ،

وعاد الشاويش «أحمد فرقع» أثناء الطعام يسأل زوجته في حوادث يومها مستفسراً على دقائق الأمور، مطالبا بالشرح والإفاضة؛ كأنه يحرر محضر تحقيق في دار الشرطة، و«روايح» تجيب بلا ملل، وقد تشفع الكلمة بابتسامة مصحوبة بغمزة عين، والجملة بضحكة ناعمة مرحة... وكان أن ختم الشاويش حديثه بقوله:

أنت تعرفينني... لا بد أن تنفذي أوامري حرفاً بحرف.

فأجابته وهي تجمع فضلات الشمامة في الصينية:

أيقدر أحد أن يخالف لك كلاما؟!

وكان الشاويش مع تدلهه بحب زوجته يكره منها شيئاً واحداً: أنها تعرف أن تفك الخط، فقد عد ذلك خروجاً على التقاليد الصالحة، فأصدر أمره إليها أن تكف عن مزوالة هذه البدعة؛ بدعة القراءة والكتابة، فليس عليها أن تشغل نفسها بما لا ينفع، إذ أن «فك الخط» من أعمال الرجال، فلتتركه له وحده!

* * *

وانطوت الأيام والشاويش «أحمد فرقع» يحيا حياته الراتبة هذه في رضا وارتياح. كل شيء يسير وفق هواه.

ولم يكن ينغصه إلا أمر واحد هو «الطابور الخامس»

إذ لم يصل بعد — بالرغم من بحثه واستقصائه — إلى كشف ما يحوطه من غموض !

وشوهـــد الشاويشُ « فرقع » مرة عائداً إلى داره وهو يحملُ قرطاساً كبيراً من المشمش الحموى » ؛ تلك الفاكهة الطيبة التي لم تغمر السوق بعدُ ، والتي لا يحصُل عليها إلا المقتدرون .

ودخل البيتَ وهو يعدُّ الجملة التي سيقابلَ بها زوجه :

« انظري يا روايح ماذا أحضرتُ لك ؟... أيُّ الرجال جاء إلى أهل بيته بمشمش حمويّ ؟ ! »

ولكن لم تقعْ عينُه على زوجه، فصاح يناديها و يكرر النداء ، فلم يجبهُ أحد ، فوضع القرطاس بجوار الباب ، ودخل يبحث عن زوجه وهو يهمهم :

لماذا لا تردّين عليَّ يا روايح ؟ !

وطاف المنزلَ . فلم يجدْ أحداً ، فوقف وسطَ القاعة ؛ وصاح صيحة مدوّية :

تعاليْ هنا ياروايح !... إني أكرهُ هذا المزاحَ !

وأخيراً جلس على المقعد يجففُ عرقه ...

لعلها تكون قد خرجتْ لتقضيَ حاجة ، ولكن كيف تعصى أمره وتتركُ المنزلَ ؟ !

وقام ثانياً ومضى يناديها ، وقد انتفخت أوداجه . . .

ووقع بصرُه بغتةً على خِزانة ملابسها فوجدها مفتوحة ، فهرع إليها ينظر فيها ، فألفاها خالية من الثياب . . . !

واندفع فى لمح البصر إلى الصندوق الصغير الذى يَحوى حليَّها ، فلم يجدْ فيه شيئاً ، فاتسعتْ حدقتا عينيْه ، وانطلق يغمغم فى خلط :

أيكون اللصوصُ قد انتهبوا البيتَ ؟ . . . ولكن روايح .. أين ذهبتْ ؟

ورأى فى قاع الصندوق بعضَ أوراق متناثرة ، فأخذ واحدة منها ، فألفاها رسالة ماكاد يقرأ منها سطراً حتى دارت الدنيا أمام ناظرَيه . . .

أبعدَ الرسالة عن وجهه ، ولكنه ما لبثَ أن أدناها من عينيه ، واندفع يقرؤها ، وأخذ أخرى وتنفُسه يزداد اضطرابا ، ثم ثالثة ورابعة . . .

وقام يروح ويجىء فى عُرض الحجرة ، وهو لا يفتأ يسائلُ نفسه ويكذبُ عينيه ، وشاهد غيرَ بعيد منه قرطاسَ المشمش ، وكأنه ينظر إليه يسائله :

ما الخبرُ ؟ !

فركله بحذائه الثقيل ركلة بعثرتْ مافيه ، ثم عاد إلى الصندوق ، ومضى يجمعُ الرسائلَ ويعيدُ تلاوتها . . .

يالله من هذه الجمل المنمقة التى ينبعث منها عطر الغرام ثائراً فواحاً !...

ويالله من هذه المواعيد الجريئة التى لم يكن يخطر على باله أن تقع ...

وأخيراً يالله من هذه الأسماء التى تختتم بها الرسائل... إنه يعرف أصحابها ، كلهم أصدقاؤه ، ضيوف قهوته ، زينة المدينة ، أشباه المتعلمين ، من يعدونه بطلهم ، ويغمرونه بكل مهابة وإجلال ...!

وافترش الأرض متربعاً والرسائل تملأ حجره . . .

وانسرح يفكر ، وطال تفكيره . .

ولمعت عيناه فجأة بوميض حاد !

فى هذه اللحظة وحدها استطاع الشاويش « أحمد فرقع » أن يفهم ما خفى عليه فهمه من أمر « الطابور الخامس » ...

لقد اهتدى على ضوء تجاربه الخاصة إلى حل اللغز العويص !

البـــديل

نشأت يتيم الأب والأم، أعيش مع عمى فى منزل الأسرة بحلوان . وكنت أبلغ من العمر العاشرة عند ما وقعت هذه الحادثة التى أرويها . وقد أخبرونى أن أبى قد مات وأنا رضيع ، أما أمى فقد تُوُفِّيَت ولى من العمر أربعة أعوام ، فلا أذكر منها إلا طيفا خفيفا ، قليلا ما ألم بى ، وسرعان ما اختفى ، وكانت تعيش معنا سيدة تدعى « الست عيشوشة » من أقارب عمى ، ولم تكن بالمرأة المحببة إلىّ . هى نحيفة طويلة صموتٌ جافيةُ الطبع ، لها نظراتٌ كريهة وابتسامة خاطفة تبعث الاشمئزاز فى النفس .

وكان عمى يعاملنى بغلظة ؛ ولكنه يُشعرنى فى بعض الأحيان بشىء من العطف . وكنت أخافه وأكره منه غلوه فى التحفظ ، ودقته البالغة فى النظام ، وهو يبلغ الستين ، مديد القامة ، حادُّ النظرات ، يسير فى خُطوات عسكرية متثاقلة ، يلتزم فى حياته نظاما دقيقا لايحيد عنه ، فلا أتذكر أنه تأخر مرةً عن موعد الأكل ، وإذا حلت العاشرة مساء وجدته أمامَ مكتبه غارقًا فى أبحاثه القضائيّة ..

* * *

كنتُ فى ذلك الوقتِ فى مستَهلِّ الإجازة الصَّيفيَّة ، أقضى يومى إما فى حديقتنا الصغيرة : أتسلقَ الشجر مع أولاد الجيرانِ أو ألعَب معهم بالكرة .

وبينما كنَّا نلعبُ ذاتَ يوم بالكرَة أمام الدار ، إذْ رأيتُ سيدةً تخترقُ الشارعَ ، فلما رأتنا نتقاذفُ الكرةَ ، وخشيتْ أن يصيبهَا منها أذًى ، سارت على الطوارِ بجوار الحائط متجنِّبة مرْماها ، كانت حسناء فى مقتبلِ العمر ، ذاتَ شعرٍ أصفرَ يلمع لمعانَ الذهب ، تجذبُ الأنظارَ بأناقتِها وزينتِها ، وتمسكُ بعصاً فى يمينها تعبث بها يمْنةً ويسرَةً .

وما هى إلاّ أن قذفَ أحدُهم الكرة فانطلقتْ صوْبَ السيدة ، وكادت تصيبُها لولا لحَاقى بها وتحويلى اتجاهها ، ونظرت إلينا السيدة نظرةً بين الغضبِ والعتاب ، ولكن ما كاد بصرها يقع علىّ حتى توقَّفت عن المسير وأخذت تلاحظنى ، ثم ابتسمت لى فى رقَّة ، فلم آبهْ لها ، واستأنفتُ لعبى ، ورأيتها واقفةً مكانها بضعَ دقائق تتبعنى بنظرها المشغوف حيثما تنقَّلتُ .

وفى مثل ذلك الوقتِ من اليوم التالى ، رأيت سيدةَ أمسِ تسير على مَقربةٍ منا فى خطوات متمهِّلة ، فما إن وصلتْ إلى شجرةٍ على جانب الطريق حتى وقفت فى ظلِّهـــا ترقبنا ونحن نلعبُ ، وشعرْت بها تخصنى — دون رفاقى — بنظرتها . وبعد

برهة لمحتها تشير إليّ بيدها تستدعيني إليها ، فلم أستجب ، وواصلت لعبي ، وظلت السيدة تلاحظني في اهتمام ، فضايقتني هذه الملاحظة بعض المضايقة ، فارتبكت ، وهجم عليّ وقتئذ زميل أوقعني وانتزع الكرة مني ، ورأيت السيدة تهرع إليّ ، وتساعدني على النهوض ، وتنفض التراب عن ملابسي ، ثم انتحت بي ناحية وسألتني :

هل أصابك ضرر ؟

فأجبتها : كلا ...

وأخذت تدقق النظر فيّ ، ثم قالت :

يا الله !.. أنت مجروح !

— مجروح ؟!

— جرح خفيف ... خفيف جداً ...

وكان صوتها موسيقياً عذباً أطربني ، فأصغيت لها ... وأخرجت منديلها ، وأخذت تمسح جرحي ، وتجفف عرقي ، فانبعث من المنديل عطر جميل أنعشني ، وقالت لي :

أأنت الآن أحسن حالا ؟

— لم لا أكون أحسن حالا وأنا لم أصب بضرر ؟!

فابتسمت ... وشعرت بأن إجابتي كانت جافة ، ورفعت بصري إليها ، فوجدتها تحدق فيّ وقد بدا عليها حنو غريب ...

فاختلج قلبى ، وقلت :

نحن نلعبُ بالكرةِ دائماً ، وكثيراً ما وقعْنا .

— أين تسكن ؟

— هنا .

وأشرتُ إلى منزِلنا ، وجعل أحـــدُ رفاقِ ينادِينى : واصفُ ... واصف !

فقالت السيدة :

أهو اسمكَ ؟

— نعم ...

فانحنتْ على جبينى تقبِّله ، وأمرَّت يدَها على رأسى تلاطِفه ، ثم قالت :

انطلقْ إلى أصدقائك يا حبيبى .

وانطلقتُ ألعَب ... أما السيدةُ فشيعتْنى بنظرةٍ طويلة ، ثم تابعتْ سيرَها بطيئةَ الخُطَا .

وفى المساء اجتمعتُ كعادتى بعمّى ، و « الستّ عيُوشة » على مائدة العشَاء ، وكان الصمت مخيِّماً علينا ، كشأننا فى كلّ ليلة ... « الست عيوشة » فى جِلْستِها العسكرية لا يفارقُ وجهُها الطبَق ، تتحرك كأنها آلةٌ بزُنبرُك ، وعمّى بملامحه الصُلبة ، ورأسِه المرفوع ، لا تغادر عينهُ الجريدةَ ، ولا يبادلنا حرفاً ...

وأخيراً نظر إلى « الست عيوشة » ، وقال لها :

أسمعْت بجارتنا الجديدة ؟

فتقاص وجهُ « الست عيوشة » وقالت ، وجسمُها لم يتحركْ قيدَ أنمُلَة :

أيةَ جارةٍ تعنى ؟

فابتسم عمىّ ابتسامته النكْراء ، وقال :

جارتنا الجديدةَ التى سكنتْ منزلَ المرحوم رءوف بك فى الشارع المجاورِ لشارعِنا !

وصمتتْ « الست عيوشة » كأنما أخجلَها أن يغيب عنها هذا الخبرُ .

فقال عمىّ :

يظهر أنك لستِ من أهل هذه الدنيا . . . إن خبرَها شاع فى حُلْوان !

فقالت « الست عيوشه » :

وما أمرُها ؟

فأجاب عمىّ ، وما تزال على فمه ابتسامته النكراء :

إنها جاءت من الإسكندريّة لتنشرَ فى هذا البلدِ الصغير وباءها . . . وباءها المهلكَ المبيد . . . !

فجحظَتْ عينا « الست عيوشةَ » ، ولكنّ رأسها لم يهتزّ ، وقالت :

أمريضة هى ؟

— أشد من مريضة ... إنها من النوع الهَدّام الذى يخرّب البيوت ، ويقوّض سعادة الأسر ... إنها ... إنها ... ألا تفهمِينَ ؟ !

— فاهمة !

— سمعت أنها كثيرة التبرّج ، ولها شعرٌ أصفر ، لا بد أنه مصبوغ ...

— مؤكد ... إنه مصبوغ !

— وقد رأوْها تسير بعصاً فى الطريق .

— كيف ؟ ... أعجوزٌ هى ؟

— أجهل عمرها ...

— لابدّ أنها تخفى سنّها تحت طلاء المساحيق الثقيلة ... ياللهِ !... ما أبشعها ... !

وكان قلبى فى أثناء ذلك يدقُّ دقًّا عنيفا ، ووددِت لو تمكنت من وقف هذا الحديث . وسمعتُ عمى يقول :

أرأيت سيدةً تسيرُ بعصاً فى الطريق ؟

فقلّصت « الست عيوشة » فمها مستنكرةً ، وصمتَ عمى برهة ، ثم تكلم فى حزم وتشدُّدٍ قائلا :

أحرّم عليكم مقابلةَ هذه المرأة أو اتصالكم بها ... !

فقالت « الست عيوشة » وقد زوت ما بين حاجبيها :
معاذ الله أن نتصل بهذه الفاجرة !
وقبل أن يترك عمى الحجرة ألقى على نظرة حادة كأنه يقول لى :
أفاهم أنت ؟
وعندما استوثقت أن عمى صار بعيداً عنا ، قلت « للست عيوشة » :
عجيب أن يتحامل عمى على هذه السيدة مع أنه لم يرها !
— وما شأنك وهذا ؟... أرأيتها أنت ؟
— أنا ؟... كلا... ولكن خبريني ، إذا حدث مثلا أنى رأيتها تسير فى الطريق الذى أسير فيه فماذا أفعل ؟!
— تمهل ريثما تخلى لك وجه الطريق .
— وإذا رأيتها تقترب منى وتحاول أن تكلمنى ؟
فرمقتنى « الست عيوشة » بنظرة فاحصة ، فاختلج قلبى . ورأيتها تبتسم بغتة ابتسامتها الشيطانية وتقول :
أراهن أنك رأيتها وكلمتها ...
فانطلقت أنكر فى تحمس ، ولكنى أحسست أن إنكارى ضعيف ، وأن صوتى يخذلنى ، ورأيت نفسى بعد حين أقول « للست عيوشة » :

اقسم بالله العظيم إنى لن أراها ، ولن أكلمها بعدَ اليوم ... لا تخبرى عمى بشىء !

وتشبثتُ بجلبابها مسترحماً ؛ فوقفتْ صامتة تحدجُنى بنظرِها البغيض ، ثم سارت مُتئدةَ الخُطُواتِ مرفوعَة الرأسِ إلى حجرتِها .

* * *

وانقضت ثلاثة أيام لم أخرج فيها إلى الشارع تفادياً من احتمال مقابلتى تلك السيدة ، أما عمى فقد ذكرها مرةً أخرى ونحن على المائدة ، فى حديث مقتضب كله سُخط وثَورة ... فآلمنى ذلك منه ، وعجبت لهذا الرجل الذى يزجُّ بنفسه فى كل أمر ، ويُريد فرض سلطانه على كلّ إنسان !

وفى اليوم الرابع خرجتُ إلى الطريق يدفعنى أمل غامضٌ إلى لقائها ، وتجاهلتُ ما أمر به عمى ، بل شعرت بشىء من الزهو والسرور فى تحدّيه ، وأخذت أروح وأجىء أمامَ المنزل أرقب ظهورَها .

ولما طال انتظارى ولم تحضر ، سرتُ إلى الشارع المجاور حيث منزلُ « رءوف بك » الذى تسكنه . فلما اقتربتُ من بابه وقع نظرى عليها فى الحديقة ، وكانت تقطف الأزهار ، ووقفتُ أمام البابِ ساكناً ، أنظر إليها وأنا مفتون بجمالها ، ذلك الجمال الذى

يَغْمُر قلبي بحنوّه وعطفه وطيبته .

كانت تتنقل بين شجيرات الورد فى ثوبها البديع ، وشعرُها الأصفر يتموج حولَ رأسها ، فيخيل إلىَّ أنى أشاهدُ مَلَكاً من سكانِ السماء ! ...

ولأمرٍ ما ، لفتتْ وجهها ناحية الباب ، فرأتْنى ... ولشَد ما كانت فَرْحَتُها !

فألقَتْ بِزَهَرِها على الأرض ، وهَرْوَلَتْ إلىَّ ، وهى تقول :

واصفُ ! ... تعالَ ... اُدخل يا حبيبى ... اُدخل .

وحوّطتنى بذراعها وقبلتْ رأسى ...

يا لله من ذلك الشعورِ الغامض الذى أحسستُ به فى تلكَ اللحظة ! ...

وأخذتْ بيدى ، ودخلتْ بى الحديقة ، وجمعت ما انتَثر من أزهارها ، وَقَدمتْه إلىَّ وقالت :

اختَرْ لَكَ منها ما يَحْلو ! ...

وأخذت تساعدُنى فى اختيار أحاسنها ؛ ثم قدّمت إلىَّ الصُحبة وهى تقول :

هى لك ياحبيبى !

وكان فى الحديقة دَكّةٌ فجلستْ عليها وأجلستَنى بجانبها ،

وجعلت تحدّق في وجهي طويلا وتمسَحُ رأسي ، واكتسى وجهُهَا بالحــزن ، ورأيتُهَا تمسَحُ عينَيْها بحركة خَفِيَّة ، ثم قالتْ :

لماذا لم تلعبْ بالكرةِ مع أصحابِكَ في ثلاثةِ الأيامِ المــاضية ؟ . . .

فطأطأتُ رأسي وقلت :

كنت متوعّكاً قليلا . . . ولكن من أخبرَكِ بأني لم أظهر في هذه الثلاثة الأيام ؟ . . .

— ذهبتُ بنفسي حيثُ تلعبون . . . وكنت أنتظرك كلّ يوم ! . . .

فعجبت من هذا الاهتمام ، وشعرت بشيءٍ من الخجل . . . ووقع بصري في هذه اللحظة على باب الحديقة ، فتذكرت أمراً أشعرني بخوف ، وتلفّتُّ حولي فرأيت ظُلّةً بعيدة عن الأنظار ، فرفعت بصري إلى السيدة وقلت لها :

ألا يُمكِنُنا أن نجلِسَ في هــذِهِ الظُّلَّة بعيدَيْن عن الباب ؟ . . .

فابتسمت لي ابتسامة لطيفة ، وقالت :

ما رأيكَ في أن ندخل المنزلَ ؟ . . . لديّ شيء أريد أن أريك إيّــاه !

وقامت وهي ممسكة بيدي ، وسارت بي إلى المنزل وأنا طائع ، وأجلستني في الردهة الداخليّة ، فإذا بها حَسَنة التنسيق بديعة الأثاث ، مزَيّنةٌ بصور كثيرة ، وفي ركن من أركانهــــا « بيانٌ » كبير ، وعادت السيدة بعد قليل تحمل صندوقاً جميلَ الصنع عليه نقوشٌ طريفة ، وفتحتـه أمامي فوجدتـُه يحوي مجموعةً منوَّعةً من الحلوى اللذيذة الغالية الثمنِ ، وقالت لي وهي تُقَدِّمه إليّ :

كلْ ما تشاءُ منه ، ثم احتفظ به لك .

فعظُمَ الأمر عليّ ، وقلت متلعثما :

كلا . . . هذا كثير !

فوضعت الصندوقَ على ركبتي ، وقالت إذا لم تأخذه ساءني ذلك منك .

— ولكن . . .

وأخرجتْ قطعة من الحلوى ، وقالت لي :

افْتَحْ فمك . . . افتح . . . !

وفتحت فمي فرمتْ بالقطعة فيه ، وأخــــذتْ تضحكُ ، فانطلقت أضحك أنا أيضاً . . . وبعد أن أكلتُ القطعة قلت لها بلا تردُّد :

سأحتفظ بالصندوق لئلا أكدِّركِ ، ولكني سأبقيه عندكِ ،

وسآخذ منه كلّ يوم ما أحتاج إليه .

فنظرتْ إلىّ مليّاً ، ثم قالت :

إنهم سيسألونك بلا ريبٍ عمّن أعطاك إياه ... فاتنى أن أفكرَ في ذلك !

ثم صمتتْ برهة ، وهي تحدّق فيّ ، وقالت :

أتحبُّ عمك ؟

ــ أحبه قليلا ، ويُحبُّنى قليلا !

ــ والست عيوشة ؟ !

ــ لا أحبها ولا تحبنى ... !

ونظرتُ إليها مدهوشاً ، وقلت :

أتعرفينهما ؟

فقالت في لهجة طبيعية :

وهل من الصعب أن يعرفَ الجارُ ما يُهِمُّه عن جاره ؟... تعالَ ... !

وقمتُ إليها ، فذهبتْ بى إلى « البيان » ، وجلستْ على مقعده ، وأجلستنى على ركبتيها ، واحتضنتنى بإحدى يدَيها ، وأخذتْ يدها الأخرى تنقر نقراً خفيفاً على « البيان » فيصـــدُر عنه نغم هادئٌ لطيف ، وأحسستُ فيها يلمسُ رأسى ويقبلُ شعرى ، ثم قالت في صوت موسيقى هادئ :

كان هناك طفلٌ يسألنى دائما أن أعزفَ له هذا النشيدَ ، وأن أغنيه له . . . طفل جميل كان يحبنى وأحبه .. فجاءنا ليلة زائر كريهٌ ممقوت يلبسُ السوَاد ، مقنّع الوجه بقناع حالك، وانتزعه منى ، ثم خرج به إلى الظلام واختفى ...

فسألتها وأنا أحدّق أمامى :

وأين ذهب الزائرُ بهذ الطفل ؟

فأجابت فى صوتٍ مختلج النبرات :

ذهب إلى حيث لا يعود النـاس ... ذهب إلى آفاق نائية ، سنذهب كلنا إليهـــا يوماً ولا نعود ...

وتابعتْ كلامها ويدها تنقر على «البيان» هذا النّغم الهادئ اللطيف :

سأغنى لكَ هذا النشيد علّه يروقك ، كما كان يروق ذلك الطفل العزيز. كنتُ دائما أجلسه هذه الجلسة، فأحوطه بذراعى ، وألمسُ شعرَه بفمى ، وأملأ صدرى بعبير شعره الذهبىّ ... اسمع ... اسمع ... !

وأخذتْ تغنى الأنشودة فى صوتٍ عذب حنون ، ونغماتُ « البيان » تصاحبُها فى تناسق جميل، فيتكوّن من امتزاج الصوت بالعزف وحدةٌ تامة ؛ حتى إن السامع ليصعب عليه أن يفرّقَ بينهما ، فيخيّل إليه أن « البيانَ » هو الذى يغنى ، أو أن السيدة

نفسها هي مصدر ذلك النغَم - تعزفه بلا كلام على أوتار قلبها!

أيُّ شعور هذا الذى كان يغمرنى فى ذلك الوقت؟... شعور عذب شَمِلَنى باطمئنان هادئ لطيف .. شعورٌ أثار بين جوانحى ذكرى محببة لمشاهدَ منزوية حرمتها من قديم ...

وبينما أنا على هذه الحال ، إذ شعرت بالسيدة تلتفت خلفها مرتاعة . فالتفتُّ — وكان الغسق قد أخذ يشيع فى الحجرة — فوقعتْ عينى على شبح بجوار الباب ، يتقدم نحوَنا . وتبادرتْ إلى ذهنى على الفــور حكاية ذلك الزائر الممقوتِ الذى يلبس السوَاد ، ويقنِّع وجهه بنقابٍ حالك ،ذلك الذى اقتحم منزلَ السيدة فى إحدى الليالى وانتزعَ الطفل الذى تحبه وتُحبها من بين أحضانها ، ثم اختفى فى الظلام ولم يعدْ ... فصرختُ :

كلا ! ... لا تأخذنى ... !

.. وأنيرَ المكان ، ورأيت عمى يسير نحوَنا بقامته المديدة، وخطواته المتثاقلة ، عبوسَ الوجه ، يصوِّب إلينا نظراته الحادة ، وسمعته يقول :

ما معنى هذا ... ؟

وانتزعنى من السيدة ، وأطبقَ يده على يدى بشدَّة ، وقال لها:

كيف سوَّغتْ لكِ نفسك أن تستولِى على أبناءِ الناس ؟ ... أنسيتِ من أنتِ ومن نحن ؟

ورأيت السيدة تقف بجوار الباب وتستند يدها عليه ، وكانت تبدو عليها سمات النبل والترفع ، وقد استطاعت فى لحظات قصيرة أن تضبط عواطفها ، وتعيد الهدوء إلى ملامحها ثم قالت له فى صوت شبه طبيعى :

كلا يا سيدى ، لم أنس ولن أنسى من أنا ومن أنتم ، وإذا كانت الأخبار قد ترامت إليك بكل ما هو مخز لى ومزر بى فصدقتها ، ولكن هناك شىء واحد أريد أن أوضحه لك فى شأن هذا الغلام ...

فرن صوت عمى قائلا

عجيب أمرك مع هذا الغلام !

— خفف من حدتك يا سيدى ، فليس أمامنا الآن ما يثير الغضب إلى هذا الحد ... إن هذا الغلام غلامكم ، وليس لى فيه أى حق ...

— حق ؟ ... هذا ما كان ينقصنا !

فابتسمت السيدة ابتسامة هادئة ، وقالت فى صوت خافض :

ألا يمكننا أن نتفهم الأمر ؟... تفضل بالجلوس بضع دقائق ، ولا أطالبك أن تطيل !

فقال عمى :

أفضل الوقوف ... تكلمى من فضلك وأوجزى !

فخلعت السيدة حليةً مستديرةً دقيقةَ الصُنع تشبه الساعةَ الصغيرة ، وكانت مدَلاَّةً على صدرِها تصلها برقبتِها سلسلة ، ثم فتحتها وقدّمتها إليه وهى تقولُ :

انظرْ فى هذه الصورة !

فتناول عمّى الحليةَ ونظر فيها ثم قال :

واصف ! ... صورة واصـــف ؟

ورفع بصرَه إليهــا مستوضحاً . فقالت وهى ما تزال تبتسم ابتسامتَها الساكنة :

كلاّ يا سيدى ، ليس واصفًا . دقق النظرَ فى الصورة مرة أخرى ، هناك اختلاف صغيرٌ لا يصح أن يَغيبَ عنك ...

ـــ إذن ؟ !

ـــ هذه الصورة لم تفارقْ صدرى منذ فقدته ! ... لن أنسى ما حييت ليلتَـه الأخيرةَ معى ؛ تلك الليلةَ التى قضاها فى أحضانى ينظر إلىّ بعينين محمومتين ولا يملك أن يتكلّم ... لقد مدّ الموتُ إليه يدَه الظالمةَ فانتزَعه من صدرى بلا رحمة !

وشعرْت بيدِ عمى تضطرب وهى ممسكة بيدى ، ورأيته يَسعُل سَعلته المفتعلة ... ومضت السيدة فى قولها :

لقد أصبح فقده جرحاً عميقاً فى فؤادي ؛ تثور علىّ ثائرته بين حينٍ وحين ... آه ! ... شدّ ما كنت سعيدةً به ... شدّ ما كنت

فخوراً به ... !

ورأيتُ عمى يتحرك ، ليعتدلَ فى وِقفتِه ، ولكنه ظلّ صامتا يستمعُ بانتباه .

وتابعتِ السيدةُ قولها :

وعند ما حضرتُ إلى حلوانَ ، لقضاءِ فصل الشتاء ، ساقتْ المقاديرُ إلىّ واصفاً ؛ فكأنما بُعِثَ ابنى إلى الحياةِ ... رأيته يعود إلىّ بعد طولِ اغترابٍ !

وسكتتْ ، وقد أخفَتْ وجهَها فى المنديل ؛ وبعد حين همهمتْ قائلةً :

والآن ياسيدى ، ليس عندى ماأقوله بعد هذا ...

ووقف عمى يدور بعينيه أمامه فى حيرةٍ واضطراب ، ولكنه لم يرفعْ بصرهُ إليها .

وظل كذلك وقتاً يحاولُ الكلامَ فلا يستطيع ، ثم استدارَ يخطُو إلى الباب ...

الترام رقم ٢

كانت الساعة الثامنة مساء ، حينما تحرك الترام رقم «٢» من محطة «العتبة» ، قاصداً إلى «نادى الألعاب» فصعدت فيه فتاة ، واختارت لها جانبا من جوانب العربة استندت إليه ، وانطلقت تمضغ اللادن ، وتجيل عينيها بين الركاب القايلين المتناثرين على المقاعد ... كانت سافرة ذات وجه نحيف ، ينم عن ذبول وشحوب على الرغم مما يحمله من طلاء رخيص .

وما إن وقع بصر «التذكرى» عليها ، حتى عبس ، فتقدم منها وهو يقول :

تذاكر ا ...

فلم تعن الفتاة بقوله ، وطفقت تبسط ملاءتها الحائلة اللون ثم تجمعها ثانيا ، فظهر ثوبها الأزرق المهلهل ، ذو الوشي المطفإ اللمعة ...

ورفع «التذكرى» صوته الخشن ، تنبعث منه بوادر الشر ، وقال :

تذاكر !... تذاكر !...

ووقف أمامها وهو يحدجها بنظرة احتقار، فابتسمت له ابتسامة اختلطَ فيها التدلل بالتملق... كل ذلك فى سذاجة ظاهرة، وقالت :

والنبى نازلة فى المحطة الثانية !...

كل يوم على هذه الحال... نازلة فى المحطة الثانية... والله إن لم تدفعى، قذفتُ بكِ من العربة... !

— لك حق... انتظر قليلا... ليس عندى نقود صغيرة!...

— كلمة واحدة :

إما أن تدفعى، وإما أن تنزلى !...

ودارت عين الفتاة فى سرعة بين الجالسين، ثم حطت على شاب يبدو فى أناقة رخيصة، يحمل كتبا مدرسية بين يديه، وكان جالسا قُبالتَها على المقعد.

مالتْ عليه الفتاة فى تكسر، وقالت وهى تُقرْقِع باللادن فى فمها :

ألا تقرضُنى ستةَ مِليمات يا افندى ؟...

فزَمجَر « التذكرى » :

ما هذه الوقاحة ؟... اتركى الركاب فى حالهم...

فقالت، غيرَ ملتفتة إليه :

ما شأنك فى ذلك ؟ ... الافندى راض أن يقرضنى ثمن التذكرة ! ...

وابتسم الشاب ابتسامة رحيبة ، وأمال طربوشه قليلا إلى حاجبه ، وأخرج المليمات الستة ، وناول « التذكرى » إياها ، فأعطاه التذكرة ، وترك المكان ثائرا ، فشيعته الفتاة بضحكة استهزاء وتماجن . ثم اتكأت على سناد المقعد ، وقد شاعت فى وجهها فرحة الفوز ، وقالت :

مجنون ! ... والنبى مجنون ! ...

وسرعان ما اشتبكت مع الشاب فى حديث طويل ...

* * *

مضت أيام ... وتحرك الترام رقم « ٢ » متجها إلى « القلعة » وكانت الساعة السابعة مساء حينما عبر جسر « الزمالك » الكبير ، وأخذ يخترق حى « بولاق » فبدت الحوانيت والقهوات على جانبى الطريق فى أنوارها المختلفة كأنها ترحب بمقدمه ! ...

وما إن دنا الترام من محطة « أبى العلاء » ، حتى قفز « التذكرى » منه ، وسرعان ما ابتلعته الزحمة ، ثم رجع بعد هنيهة يحمل رغيفين يتصاعد منهما الدخان ، منتفخين بأرز وأشتات من لحم . فأعطى للسائق رغيفاً ، واستبقى الآخر لنفسه ... !

وانطلق الترام وئيد السير ، وانهمك الرجلان فيما بين

أيديهما، غافلين عن النازلين والصاعـــدين ... فلم يكن يُسمع إلا صوتُ الزمارة تزعق بصوتها الحاد بين حين وحينٍ، وحركة الترام وهو يقف ثم يسير!...

والتهم كل من « التذكرى » والسائق نصفَ رغيفه، وشعر « التذكرى » بأنه أطالَ وقفته، وخشيَ أن يباغته المفتش فترك مكانه، وتقدم مخترقا الدرجة الأولى، والرغيف فى يده يقضم منه قضمَاته المعهودة ... وكان فى أثنـاء ذلك يوزعُ التذاكر، ويقبضُ النقود، وينفخُ فى زَمّـارته، ويصرخ بأعلى صوته ... هذا، ورائحةُ الرغيف الساخن، بلحمه وأرزه، تتقدمه لتداعبَ أنوف الركاب!...

ودخل « التذكرى » الدرجة الثانية، فوقعت عيناه على الملاءة الناصلة، والثوب الأزرق ذى الوشى الشاحب ... فابتسم ابتسامة كأنها تكشيرُ الذئاب، قابلتهـــا الفتاة باستسلام لا يخلو من إهمال، وقد اتسعتْ طاقتا أنفـها تستقبلان رائحة الرغيف!...

وصاح « التذكرى » فى حشرجة، وفمه ممتلىء:

تذاكر!...

ووقف الترام هذه اللحظة فى محطة « الإسعاف »، وصعِدَ فلاح يحمل خُرْجاً، واندفع إلى حجرةِ الدرجة الأولى.

فرماه « التذكرى » بنظرة احتقار، وصاح به:

هنا ياحضرة ... هنا ... !

وكان «التذكرى» قد اقترب من الفتاة ، فقال لها فى لهجة حازمة :

تفضلى وانزلى ... !

وكانت عينا الفتاة لاتبرحان الرغيفَ طَوال الوقت ، أو بالأحرى ما فضَل منه ... وانسرح فكرها ، إلى ما يحويه من حشو لذيذ ، وما يجده آكلُه من متعةٍ . وهو يقضمه لقمةً لقمةً فى تباطؤٍ ، ويبتلع على مهل ...

وتنبهت الفتاة على قول « التذكرى » لها :

ألم تسمعى قولى ؟ ... تفضلى وانزلى ... !

ولمحت الفتاة وقتئذ الفلاَّحَ صاحبَ الخُرج ، وقد أخذ مجلسه على مقرَبة منها ، وأخرج خرقة من جيبه فتحها وانكبَّ عليها يعُد ما فيها من قطع النقود . فابتسمتْ الفتاة له وهى تتثنَّى فى وِقفتها ، وقالت :

والنبى ياجنابَ العمدة ، كم الساعة ؟ ...

فأمسك « التذكرى » بكتفها المهزولة بشدة ، وقال :

دعى الركابَ وشأنهم ، والزَمى الأدب ! ...

ورفع الفلاَّح أنفه عن الخرقة ، وتساءلَ مدهوشاً :

ماذا جَرَى ؟

فقالت الفتاة .

والنبي يا جناب العمدة كم الساعة ؟ ...

فحدجها بنظارة حادّة ، وقال لها وهو يجمع أطرافَ خرقته ، ويلفّها برباطها الطويل :

لا أنا عمدة ، ولا أنا معى ساعة ... ابعدي عنى ... !

وجذبها « التذكرى » ناحيةَ السلم ، وهو يقول :

والله إن لم تنزلى فى المحطة التـــالية قذفتُ بكِ من الترام ! ...

وتشبثت الفتاة بدعامةِ السُّلم ، وابتسمتْ «للتذكرى» وقالت فى استعطاف :

أقسم لك سأدفع ...

وتمهل الترام فى سيره ؛ إذ كان أقبل على محطة « المترو » ولكن « التذكرى » لم يمهل الفتاة ، بل دفع بها والترامُ ما زال يخطو ، فسقطت على الطّوار ، وهى تئن مولولة !...

وما أسرع أن انعقدت حولها حلقةٌ من المتسائلين والمتفرجين، وكثر اللغط ، وتطايرت الشائعات ، وازدحمت الحلقة ، وسمع الناسُ رجلا يقول بصوت واضح :

سليمة ! ... سليمة ! ...

ورأوا شبح الفتاة بعد هنيهة يستند إلى يدِ الرجل ، وصاح أحدُ الباعة الجوّالين فى وجه « التذكرىّ » قائلا :

ألا تخجل من إظهار قوّتك على بنت ؟ . . .

وصاح آخر موجها كلامه إلى الفتاة :

لابد أن تشكيه للعسكرى ! . . .

ومرت سيدة بالجمع المحتشد، وكانت تسير فى مشية متزمتة ، وغايتها الترام رقم « ٢ » ، فما إن تبينت الفتاة حتى عرفتها ، فتمتمت فى تشَفٍّ :

هذا جزاؤها ! ...

وصعِدت فى مقصورةِ الحريم . . .

ووَقفتِ الفتاةُ وهي تنفض عَن ملاءتها ما عَلِقَ بها من تراب ، ولكنها ما كادت تفعل حتى خذلتها قواها ، فكادت تهوِى ، لولا أن تداركها الرجل الذى أسندها أولَ مرة ، وسمعته يقول لها فى تحنُّن :

مالك ؟

فقالت فى صوتٍ متخاذِل :

لم أذُق فى يومى كله طعاما ...

وتحرك الترام ، و « التذكِرى » لم يبرحْ مكانه من العربَة . وكان واقفا ينظر إلى ما يمرُّ تحت بصره من مشاهد ، ويُصغى إلى ما يطرُق سمعَه من أقوال ، صامتا لا تنبس شفتاه بحرف ، يقضِم بين وقت وآخرَ من رغيفه فى غير وَعْىٍ . . . وعندما

سمع قولَ الفتاة للرجل إنها لم تذق طعاما فى يومها هذا ، نظر إلى بقية الرغيف فى يده ، ثم أمسك عن الأكل ! ...

* * *

انتهت نوبة « التذكرى » فى عمله بالترام رقم « ٢ » فتركه فى « العتبة الخضراء » وسار فى شارع « محمد على » ، ثم انعطف بعد قليل إلى « حارة المناصرة » ودخل القهوة التى يقضى فيها دائما أوقات فراغه ، فرمى بنفسه على أحد المقاعد ، وطلب القهوة وقَصَبة الطباق .

وانطلق يحتسى القهوة ، ويجتذب الدخانَ على مَهَل ، وهو صامتٌ جيّاشُ الفكر :

أيكون قدَقسا اليوم على الفتاة بلامسوّغ ؟... أأصابتها جروح أو رضوض ؟ .. ولماذا تركتْ أن تشكوَه إلى الشرطة ؟ ...

ومر بذهنه طيفُ الفتاة وهى تبتسم له فى سذاجة واستعطاف قائلة :

أقسم لك سأدفع ... فتموجت على فمه شبه ابتسامة ضعيفة !...

وراح يعرض حوادثه معها :

رآها تبسط ملاءتها وتجمعها ، فيظهر ثوبها الأزرق ذو الوشى الخابى الضوء . وحدّقَ طويلا فى جسمها الرشيق الوديع وعيونها المملوءة بالكحل ...

وشعر بيد تهزه ؛ فاستيقظ ملتفتا حوله ، فإذا بصديقه «فرغل» قد اختارَ مقعدا بجواره جلس عليه جِلسَتَه المنتفخة . . . وسمعه يقول :

ألا أخبرتنى بحكايتك التى جرَتْ لك اليوم ؟ ...

— أية حكاية ؟ ! ...

— قيل إنك تشاجرت مع فتاة وقِحة من المشرَّدَات ! ...

— إنها مسألة تافهة ! . . .

— وسمعت أيضا أن سيارةَ الإسعاف أخذَتْها .

فأمسك « التذكِرى » بيــــد صَاحبه ، وقال وقد تغضنت جبهتـه :

أأخذها الإسعاف حقا ؟ ... لا تقل ذلك ! ...

— الواقع أن البنت تستحق ما جرى عليها . . . لقد أدَّبْتَها خيرَ تأديب .

ثم أخذ يطلق من حلقه ضحِكاتٍ عاليةً كريهةً ختمها بسُعال بغيض ! . . .

وقدم فى هذه الساعة بعضُ الرفاق ، فالتفوا حلقة حول الصديقين ثم تصايحوا يطلبون « الضومنة » ! ...

* * *

انتهت سهرة « حنفى التذكِرى » مع زملائه فى قهوة «المناصرة»

قـرابة منتصف الليل . . . فسرى إلى مسكنه يجر قدميه المتعبتين ، وظل فى طريقه يُدَمْدِم ساخطا ، لقد خسِر فى «الضومنة» فأطال جلسته ليعوِّض ما فقده ، فتضاعفتْ خسارته . . .

ووصل إلى الدار ، وصعِد مسكنه فى الطبقة الثانية ، فألفاه كعادته مظلما صامتا ، تغشاه وحشة قاسية ، فأشعـل مصباح النِّفْط ، ودار به فى المكان يبحث عن شىء ، وقد شعَر بأن معْدَتَه بدأت تستيقظ متصايحة ... وعثَر على قدر الطعام قابعة فى أحـد الأركان ، فرفعَ غطاءها وجعل يتشمَّمها ، ويتفحص محتوياتها ، ثم وقع بصره على الكانُونِ المطفَإ منكمشا فى عبوسه وخموله . . . عليه أن يشعلَه كما يفعل كل ليلةٍ ، ثم ينتظر طويلا حتى يسخنَ الطعام . . . وما لبث أن رمى بغطاء القِدر وهو يغمغِم :

طعامٌ كريه ... لا يؤكل ! . . .

واندفع يسب «أم إبراهيم» التى رضيتْ ـ على الرّغم من شيخوختها وضيق وقتها ـ أن تقوم بما يوفر له أسبابَ الراحة فى مسكنه ، نظيرَ أجر تافه تتقاضاه إياه فى كل شهر ! ...

وخلع «حنفى التذكرى» لبوس العمل ، ورمى به على المقعد ، وارتدى جلبابه ، ثم طرح بنفسه على الفراش ...

وبدل أن يطلق عينيه للكرى ، راح يعرض حياة الوَحْدة

الممضَّة التي يحياها منذُ توفيتْ زوجته ... فكان يتنهد بين فترة وأخرى ، حتى غلبه النوم ، فانتقل إلى دنيا الأحلام ! ...

* * *

استيقظ « حنفى التذكرى » من نومه ، وجلس على حافة فراشه يتمطى ، ويتثاءب فى شكل بشع ، ثم أشرقت على وجهه رويدا ابتسامةٌ تحولتْ فى سرعة إلى قهقهة صارخة . واندفعتْ مخيلته تعربدُ فى مجون ولهو وهو يستعيد حلما شهيا رآه فى المنام !...

وقفز من فراشه ، وأخذ يرنو إلى القدْر فى حنان . . . ولم تمض برهة حتى تأججت النار فى الكانون ، وامتلأت الغرفة برائحة الطعام . . . وأطلق « حنفى » يده فى القدْر ، ثم أرسلها إلى فمه ... وتلاحقت حركة يده من القدْر إلى فمه فى سرعة ومهارة !...

ثم تجشأ ، ومسح شاربه طويلا وأشعل لفافة ، وقصد إلى النافذة فى خطوات متكاسلة ، وراح يتطلع أمامه وهو ينفث الدخان متلاعبا ... وحطّتْ عيناه على نافذة فى منزل جاره ، تبين له خلفها شابة مازالت فى قميص النوم ، تروح وتغدو فى الغرفة مهتمة بتنظيفها وترتيبها . . . ورآها تضع القلة على رف الشباك فى مهب النسيم ! . . .

وترك « حنفى » النافذة ، ثم نظر إلى ساعته ، وما عتم أن قفز إلى ركن ملابسه ، فأخذ يرتدى لبوس عمله فى عجلة .

وهرول نحو الباب ، وما كاد ينفذ منه حتى رأى «أم إبراهيم» مقبلة عليه تقول :

صباح الخير ياسى حنفى ! . . .

فحدجها بنظرة حادّة ، وأجاب :

صباح الشر يا أم إبراهيم !

— شر ؟ . . . باسم الله الحفيظ ! . . .

— شر . . . طبعاً شر ، خدمة سيئة ، وحال كريه لا يطاق .

— لمَ أسمعْك تقول هذا من قبل . . . ماذا جد علينا . . . ؟

— حتى القلة لا تعرفين أن تضعيها على الشباك لتبرد . . . !!

— ألم تحرِّجْ على أن أفعل ذلك منذ أن وقع الإبريق الفخار على رأس الافندى فى الحارة ؟ . . .

— دائما تنسبين إلىّ مالم أقل لكسلك وغباوتك ! . . .

ولمس فى هذه اللحظة صدره ، فوجد زرّا مقطوعا من أزرار كسوته ، فزمجر :

هذه ملابسى ممزقة مهملة . . . حال لا يطاق . . . هذه آخر مرة تطئين فيها عتبه غرفتى . . . أسامعة ؟ . . آخر مرة . . .

وأقفل البـاب بعنف ، وانحدر على السلم يقفز قفزا ، وهو يرغى ويزبد . . .

* * *

تسلم « حنفى » عمله ذلك اليوم فى الترام رقم « ٨ » ومضى الوقت والعربة فى جيئة وذهوب بين « العتبة » و « شبرا » ، وهو فى غُـدوّ ورَوَاح بين الدرجة الأولى والثانية وموقف السائق ... وفى يده لوح الخشب المرصوصة عليه دفاتر التذاكر المختلفة ، يدق عليه بقلمه الغليظ ، ويصيح :

تذاكر ... تذاكر ! ...

واستند « حنفى » مرة إلى إحدى دعامات العربة ، وكان الترام قد توغل فى ضواحى « شبرا » ، وأخذ الرجل يسرح بصره فيما حوله من حقول خضر يحملُ شذاها إليه نسيمٌ هادىء وديع ، ثم أطلق لفكره العنان ، وإذا به يسائل نفسه :

أحقا أن الإسعاف أخذها ... ؟ !

* * *

مرت بضعة أيام عمل « حنفى » أثناءها فى خطوط مختلفة ، ثم عاد ثانيا إلى الترام رقم « ٢ » ...

كانت الساعة العاشرة مساء حينما لمح « التذكرى » الملاءة الناصلة مستندةً إلى إحدى دعامات العربة ، وكان إذ ذاك يحاسب أحد الركابِ ، فأحس النقود تختلج فى يده ! ...

ولمحته الفتاة ، فاكفهر وجهها ، وتقدم هو منها ، متبرما صارخا .

فلم يسع الفتاة إلاّ أن تندفع نحو السلم تريد أن تقفزَ إلى الأرض ،

ولكن ما كادت قدماها تقتربان من الدرج حتى وجـــدت يد « التذكرى » تشدها ، وإذا به يصيح :

أمجنونة أنت ؟... اصبرى حتى يقف الترام فى المحطة ! . . .

وعادت الفتاة إلى مكانها وهى تقول :

أشكر لك هذه الرقة ! . . .

فانفجر « التذكرى » يقول :

أنتِ لا تنفع معكِ رقة ولا شدة ، مالك وللترام وركابه ... أبينى وبينكِ ثأر حتى تنغّصى علىّ عيشى ؟ . . .

وتدخل أحد الحاضرين ، فأخذ « التذكرى » يقص حادثة سقوط الفتاة من الترام ، وحضور الإسعاف لأخذها . . . فقال الرجل « للتذكرى » :

لماذا لم تأخذها إلى الشرطة ؟ . .

— فكرة صائبة، فلآخذها إلى الشرطة ، لأنتهى من مشكلتها ! ...

وذهب « حنفى » يتم دورته فى الترام وما إن انتهى من قطع التذاكر للركاب . حتى قصد فى سكون إلى ركن من أركان العربة ، وقد علا وجهه سيماء التفكير .

وبدأ الترام يتريث فى سيره ؛ لاقترابه من المحطة ، وقفز إليه المفتش بغتة ؛ وشرع يستطلع تذاكر الركاب ، وقصد « حنفى » إلى الفتاة فى هـــدوء ، ودس فى يدها تذكرة ، ثم استأنف سيره ؛

كأن لم يفعل شيئاً !...

وأتم الترام شوطه إلى « القلعة » ، وبدأ شوطاً جديداً إلى « نادى الألعاب » ، والفتاة فى مكانها مستندة إلى دعامة العربة ، تختلس النظر إلى « التذكرى » وتسائل نفسها : لماذا لم يأخذها إلى دار الشرطة ؟ ... أو على الأقل : لماذا لم يسلمها إلى أحد العساكر ؟ ...

أما الرجل ، فكان إذا أتم عمله ، مضى إلى ركنه ، واستغرق فى تفكيره ! ...

ورأته الفتاة يقترب منها ، فابتسمت فى وداعة ، وأسرعت قائلة :

سأنزل فى المحطة التالية ...

فلم يجبها ، بل وقف بجوارها مستنداً إلى إحدى دِعامات الترام ، ولزم الصمت وقتاً . ثم سمعته يقول كأنه يحدث نفسه :

أين تسكنين ؟ ...

— لِمَ تسألنى هذا السؤالَ ؟ ... أتريد أن تبلغ أمرى إلى الشرطة ؟ ! ...

— أليس لكِ أهل ؟ ...

— أنا وحيدة فى هذه الدنيا ! ...

وعاودهما الصمت ... وترك « التذكرى » موقفه ومضى

إلى الركاب الجدُدِ يقطع لهم التذاكر ، ثم رجع إلى مكانه بجوار الفتاة . فقالت له :

عملكم فى الترام شاق ... أليس كذلك ؟ ...

— من الصباح إلى المساء ونحن لاتهدأ لنا حركة ، لقد حفيت أقدامنا من طول المشى والوقوف ! ...

— كان الله فى عونكم ...

— ألا يعذر المرء بعد هذا إذا ضاقت أخلاقه وفار دمه ؟ ..

— بالطبع ...

— وإذا عاد الواحد منا بعد كل هذا إلى داره ، ولا يجد فيها لقمة طيبة ، ولا فراشا مرتبا ، فماذا يكون حاله ؟ ...

— أين تسكن ؟...

— فى المناصرة ! ...

— مع أهلك ؟ ...

— وحدى ... لا زوجة ولا ولد ..

وصعد الترام رَكابٌ جدد، فانتقل « حنفى » من مكانه ، وعُنى بقطع التذاكر . وكثر العملُ عليه ، فظل وقتا طويلا يتنقل فى الترام ، ويده تتحرك كالآلة من المحفظة ، إلى لوح التذاكر ، إلى أيدى الركاب ... وبين فترة وأخرى تنطلق من الزّمارة صرخةٌ عالية ، فلا تدرى أصرخةَ استغاثة هى أم زفرةَ مكدود ؟

وكانت عينا الفتاة طوال الوقت تتبعانه أينما تحرك ! . . .

وما كاد الترام يقترب من محطة « أبى العَلاَء » ، حتى قفز « حنفى » إلى الأرض ، وأخذ يركض صوب دكان من دكاكين الحى . . . وعاد بعـــد قليل يحمل رغيفا ساخنا محشواً بالأرز واللحم . . . وصعد العربة ومر بالفتاة ، فناولها الرغيفَ فى سكون ! . . .

ونظرت إليـه متعجبة ، ولكنه تابع سيره ، وانطلق يقطع التذاكر . . .

وتلاقت نظراتهما . .

وابتسما ! . . .

* * *

انتهى عمل « التذكرى » فى الترام ، فسلم محفـظته فى العتبة ، وسار فى شارع « محمد على » ، ووجهته حارةَ « المناصرة »

وأحس دافعا يحفزه إلى الالتفات خلفه ، ففعل . . . ثم واصل سيره ، وقد لاحت على وجهه ابتسامة مشرقة . . !

ودخل حارة « المناصرة » . . . وهو يُرهف السمعَ إلى خفق قدمين تتبعانه ! . . .

ولما مر بالقهوة المعهودة ، حثّ خُطَاه ، فلم يره أحد . . .

ودنا أخيراً من مسكنه . . .

ووقف بجوار الباب ينتظر ! . . .

البومة تنعـــق

لا أدرى لماذا عملت بنصيحة هؤلاء الأطباء الأغبياء ، وجئت هنا فى الريف ، كنت أحسنُ حالا حينما كنتُ فى مصر. لقـــد أكدوا لى أن بضعةَ أيام أقضيها فى الضيعة كافية لأن تعيد إلىّ صحتى ، فالذى أشكو منه ليس إلاّ ضعفا عصبيا نتيجة للحمى الشديدة التى انتـــابتنى وكادت تقضى علىّ ؛ فالراحة ، والرياضة الهينة فى الشمس والهواء الطلق ، والغذاء الصحى ؛— علاجى الوحيد ... هذيان !... هَـذيَـان !... من أين لى بالراحة وهذه البومة تنعق بجوار نافذتى ؟ ... لم أسمع للبومة قبل اليوم صوتا فى هذه البشاعة ... إنى أرتجف عند سماعى لها وهى تلحّ فى نعيقها كأنها تعلن للناس خبرَ كارثة على وشك الوقوع ... عملت المستحيل لأنَحِّـيَهَـا بعيداً عن مسمعى فلم أفلح ... إنها رابضة فوق رأسى رُبوض الفناء فوق رأس المحْـتَـضَـر ! ..

والهواء الطلق أين هو ؟ ... لقد مررت — وأنا آت بالعربة من المحطة إلى الدار — على بِرَكٍ ومناقع ملأى بالجِيَـفِ المنتفخة

تتصاعد منها أبخرةٌ حارّةٌ كريهة ... لن أنسى مطلقاً منظر إحداها .. كانت جثة طافية على سطح الماء ... أتكون حقاً جثةً لحيوان ؟ ... إنها شديدة الشبه بامرأة حبلىَ منتفخة السيقان ؛ امرأة بلا رأس ... أشعر بضيق تنفسى ... يخيل إلىّ أن حول الدار جيفاً شبيهة بتلك ... متراصة بعضها فوق بعض ، تحيط بها وتحاصرها ... ما أقبح رائحتها ؟ ...

نبضى مائة فى الدقيقة ... سأحاول تهدئة نفسى ... ولكن النبض يتزايدُ ، وأخشى أن يقف قلبى دَفعةً واحدة ... لقد حدّثونى حينما كنت صغيراً أن أبى مات فجأة وهو يصلى ... كنت إذ ذاك فى الرابعة من عمرى ، ولا أذكره إلا فى ساعته الأخيرة ... رأيته محمولا وكان وجهه مقنعاً وأمى خلفه تبكى وتصرخ ... فما إنْ وقع بصرى على هذا المنظر حتى هربْت ... جريتُ وأنا أرتعش ، وارتميتُ فى أحضان مرضِعتى وأنا أخفى وجهى فى صدرها وأشهق ...

البومة ما زالت تنعق فى إصرار عجيب ! ... إنها تقطع علىّ سلسلة أفكارى ... ألا يوجد فى الدار بندقية تقضى على ما بقى فى حياة هذه البومة من أيام ؟ ...

الأيام مجدّة فى السير ، وحالتى تزداد سوءاً ... أصبحت أخلاقى لا تطاق ، وتصرفاتى عجيبة إلى درجة الشذوذ ... بهذا سمعتهم

يهمسون ... لا أنكر أنى أكلف زوجتى بعض الأحيان أمورا مرهقة ؛ أقول بعض الأحيان . لا على الدوام . . ولكن علام التذمر ؟... إنها زوجتى ويجب أن تشاطرنى آلامى ... أتريد منى أن أقضى الليل وحيدا أتقلب على فراشى وليس بجانبى أحد يسهر على راحتى ؟ ... إنى أكره الظلام ولا أستطيع النوم والمصباح مطفأ ... أريدها دائماً بجوارى فإذا شعرت بالوحدة مددت يدى أتحسسها ... أنا لست خائفا ... إنه لشىء مضحك مخجل أن أفكر فى هذا ... مم أخاف ؟ ... لا شىء فى العالم يخيفنى ... ومع ذلك أنا أرتعش ! ...

لم يغمض جفنى بعد ... المكان هادىء ... ولكنه هدوء يقلقنى ... أهناك أنفاس أخرى تتردّد فى الغرفة غير أنفاس زوجتى ؟ ... هذا ما لا أستطيع أن أجزم به ... أحس أن هناك أصواتاً كالهمس ... كفحيح الثعابين ... لا يبعد أن يكون فى الحجرة ثعابين فى هذا الوقت ... أو هناك كائنات غيرُ منظورة تسبَح فى جوّ المكان ... كائناتٌ لها أجنحة كالخفافيش ! ...

لقد هزَزْتُ زوجتى هزا عنيفا حتى استيقظتُ ... شدّ ما كانت بليدة فى نومها ! ... وقضينا وقتا طويلا ونحن نبحث تحت السرير والمقاعد ... وفى جميع الأركان ... لقد قلبنا الأثاث كله

رأسا على عقب ... ثم ارتأت زوجتى أن تُطلِق البَخُور لتطردَ الأرواحَ الشرِّيرَة ، فضحكت من فَعْلتها وأنا أعيِّرها بالجَهْل ! ...

* * *

كيف يجوز للشعراء المجانين أن يتغنوا بجمال الريف ؟ ... أين هذا الجمال ؟ ... إنى أبحث عن جزء ضئيل منه منذ قدومى هذا المكان فلا أجد شيئا ... الخراب يحيط بى من كل جانب ... مضى على الآن ما يقرب من الساعة وأنا ممدد فى الشرفَةِ . إن ضوء الشمس لايطاق ... أشعرُ كأن بصرى يفقِد من قوته ، فأضطر إلى إغماض جفنى ... أسمع منذ لحظة طائرا يصفق بجناحيه ولكنى لا أراه ... أثمة طائر محبــوس يحاول الخروج فلا يقدر ؟ ... تصفيق أجنحتِه مستمر ... أشعر بمحاولاته العقيمة للفرار من محبسه ... إنه يثير أعصابى بهذه الحركة الدائبــة ! ...

الخادم يؤكد لى أنه ليس ثمةَ طائرٌ محبوسٌ فى المنزل ... كلهم يؤكدون لى ذلك أيضا ... ولكنى مازلت أسمع أجنحة تصفق ... يا لله ! ... أكاد أختنق ... يخيل إلىّ أن الطائر قريب منى جداً ... أيكون مختبئا فى ملابسى ؟ .. إن جزء جلبابى الذى فوق صدرى يتحرك حركة غير عادية .. إنه قلبى ... ينبض مائةً وثلاثين

نبضةً فى الدقيقة ... ظهرت البومةُ فى هَذه اللحظة ووقفت على حاجز الشرفة ... إنها لجرأة غريبة منها .. لقد بدأتْ تصوِّت وهى ترمقنى بنظرِها الثابت الحاد . إن نظراتها أشدُّ قسوةً من صوتها ... وأشعرُ كأنها تخترقُ شَغَافَ قلبى ، وتكشف عن أسرارى ... وهذه الابتسامة الكريهة المرتسمة على منقارها الأعقف: إنها تسخر منى ! ... أفٍّ ! ... لم أكره فى حياتى شيئا كرهى لهذه البومة ! ... لقد أخذتُ حجرا كان فى متناوَل يدى ، وسُرعان ماقذفتُها به ، ولكنى أخطأتُ المرْمَى فطارتْ إلى شجرةٍ ليستْ بعيدةً عنى ، وعادتْ إلى تحديقها الساخر ونعيقِها المفزع ... لايتسنى لى احتمال هذا ... سآتى ببندقية ولو كلفنى ثمنها أن أنزل عن كل مامعى ... إن نبضى يكاد يكون عاديا ... لقد هبط من مائة وثلاثين إلى ثمـــانين ! ...

* * *

أترانى قد ظلمت هذه السيدة التى أدعوها زوجتى بإحضارها معى إلى الريف ؟ ... ليس لها أى متعة فى هذا المكان الخربِ الموحش ... إنهـا لا تتذمر ولكن وجَهَها ينطق بالشكاية الصامتة : ومع ذلكَ تراها مستسلمةً تُبالغ فى تدليلى وتمريضى ... مسكينة هذه المخلوقة ... ربما صارت أرْمَلةً عن قريب ! ... أرمَلة ؟ ! ... لا أدرى لماذا نطقت بهذه الكلمة ؟ ... وأىّ

وحى أوحاها إلى ؟ ... ولكن لِمَ تكون مسكينة وَهى أرمَلة ؟ أليس فى موتى راحةٌ وسعادةٌ لها ؟ . . .

ما أكبرَ الانقلابَ الذى اعتراها . مازلتُ أذكر يوم رأيتها أولَ مرة ... كانت أمام دارها تتحدث وتتماجن مع رُفقَة من صُوَيحباتِها ، ولم تكن قد تعدت السادسةَ عشرةَ - وكنت قد أتيتُ فى زيارةٍ لأبيها . وتقدمتْ إلىَّ وابتسامةُ الشباب المملوءةُ حياةً وآمالاً تلتمع على وجهها . وذهبتْ بى إلى حيث كان والدها وبادلتُها بعض الكلمات :- كلمات غاية فى السخافة ؛ ولكنها كانت بديعة رائعة عندى ، جعلتُ أستعيدها طول اليوم . . . وبعد عامين من هذا التاريخ زُفتْ هذه الفتاةُ إلى ... وها قد مضت عشرة أعوام على زواجى منها ... عشرةُ أعوام عشتُها كبقية الناس . أو بالأحرى كبقية هذه الدَّواب الآدمية التى تسير فى القطيع مطأطئَـــةَ الرأس ذليلَة ، والآن أتلفتُ حولِى فأجدُ زهرة الأمس النَّاضرة المشرقة أصبحتْ عودًا جافاً مشقَّقًا يتهشم علىَ مَهَلٍ . يا لَلاصفرارِ الذى يعلو الآن وجنتيها ! ... يا لهذه الابتسامة الفظيعة التى تلفظها شفتاها ، إنها ابتسامة كريهة لا أستطيع النظر إليهـــا ! . . . أتكفى عشرة أعوام لتحويل هذه الصبية النضرة إلى عجوز ينتظرها القبر بفارغ الصبر ! ... أأكون أنا المسئولَ عن كل هذا ؟ .. يا إلهى ! ...

إنى لأشعر بعطف عظيم نحوها . . . إنى أحييها فى تمجيد وتعظيم كبطلة من أبطال الإنسانية ! . . . ولكن لِمَ كل هذا ؟ . . . وأنا ؟ . . . ألستُ أستحقُ من نفسى قبل كل شىء هذا العطف وهذا التمجيد ؟ ... أنا الذى احتمل هذه الحياةَ السخيفةَ المضنيَة فى هذه الدنيا الموبوءة المجدبة ! ...

* * *

إنها ليلة كريهة لا أستطيع أن أغمض فيها عينى لحظةً . . لقد أمضيتُ قبلها ثلاثَ ليال متواليات وأنا قلق ، أتقلب على فراشى والنوم بعيدٌ عنى ، وفى القاهرة قضيتُ أيضا ليالىَ بأسرها وعيناى مفتوحتان أدورُ بهما فى الظلام أطلب الهدوء لروحى والراحةَ لجسمى ، ولكن هيهات ! ... أما هذه الليلة فيخيل لى أنها أشدُّ ليالىَّ هولا : نور المصباح ضعيف وزجاجُه كدر .. لابد أن نستبدل به آخر أكبرَ وأنظفَ .. بدأت البومَةُ تنعق ... ولكن الخفيرَ نفَّذَ إرادتى، فعاجلها بطلقةٍ أردَتْها قتيلة .. أشعر بشىء من الراحة ... لقد مرَّت ساعتانِ على قتلها ، فازداد الليل صمتا وكآبة ! ... أشعرُ بحنينٍ غريب لسماعِ صوتها ! . . . وكلما فكرت فيها ــ وهى الآن ملقاة تحت نافذتى وعيناها مفتوحتان ــ أحس برودةً فى بدنى ... متى يلقُونَها بعيدا عن المنزل ؟ . . لقد اضطرت إلى أن أضيفَ لحافاً آخر فوق غطائى .. أأكون محموما

أمْ بدأ جوّ الليل يبرد ؟ . . .

قضيتُ اليومَ كله وأنا منتظر ما فعله الخادم بالبومة . . .
ها قد حضر . . لقد أذعن لما طلبته منه . . . أحضرَها لى محنّطةً وقد وقفها على حاجز الشرفة وثبّتها عليه . . . لم يُفقدْها الموت شيئا . . . يخيل إلىّ أنها عَلى وشك الصياح . . . سأعمل لها صُندوقاً من الزجاج ، وسأحتفظ بها دائما عندى . . . لقد أمرتُ الخادمَ أن يأخذَها ويُعنى بلفّها فى خِرَقٍ نظيفة ويضعها فى مكان مأمون . . . لا أريد أن تأكلها القِططةُ أوَ تشوّهها الفيران ! . . .

الليل بدأ يسحب رداءه الثقيلَ على القرية . . . أسمع أصواتَ بعضِ الفلاّحين وهم يتشاحنُون . . . ثم أذانَ المغرب . . . ثم كان صمت . . . صمت . . . صمت . . . أكاد أجَنّ من هذا السكون . . . ألا توجد ضفادعُ أو صراصيرُ تبعث فى هذا الجو الميت شيئاً من الحركة؟ . . .
فظيع أن يقضىَ الإنسان الحىُّ أيامَه فى غياهب هذا المكان؛ كما تقضى الجثة الهامدة أيامها فى غياهب القبر ! . . .

لقد طلبتُ البومةَ فأحضروها لى ، ووضعوها فى ركن من أركانِ الغرفة . . . إنها مستقرة بهدوء فى خِرَقها كطفل نائم مستقرّ فى لفائفه يحلُم أحلامَه الذهبية . . . زوجتى تقول إن رائحتها لا تطاق . . . ولكنّى على العكس أستطيبُ هذه الرائحة . . .
أشعر بهدوء غريب يشملنِى ، ورغبةٍ مُلِحة فى النوم ! . . .

* * *

أستطيع أن أقرر أنني أهدأ حالا من ذي قبل ... قضيتُ الساعاتِ الطوالَ صامتا أفكر ... في أي شيء ؟ ... في مصاير الناس وأحوال هذا الوجود العجيب ... أهناك فرق كبير بين أعظم رجل في العالم وبين هذه البومة المكفَّنة في لفائفها ؟ ... منذ أيام أردت أن أصلي، وما إن بدأت قراءة الفاتحة حتى مرت بخاطري صورة أبي، وهو مطروح بلا حراك على سَجَّادةِ الصلاة فلم أستطع إتمام صلاتي ... واليوم صليتُ صلاةً طويلةً والطمأنينةُ تغمر نفسي ... أشعر بأني قد اتصلتُ بالله وقد استغفرته لكثير من خطاياي ! ...

* * *

اليوم وأنا أقلب أشيائي عثرتُ على « الزجاجة الصفراء الصغيرة » ... كيف ؟ ... من وضعها في الحقيبة قبل سفري إلى الريف ؟ ... إنها ملفوفة في عناية غريبة ... لا يستطيع أحد أن يلف القوارير هذا اللف المحكم غيري ... إنني أطيل فيها النظر ... لقد هُرِعتُ إلى زوجتي أريد أن أسألها عمن وضع هذه الزجاجة في حَقيبتي ... ولكني ما كدت أفتح فمي حتى أطبقتُه ثانيا، وعدتُ أدراجي إلى حجرتي وأنا صامت أفكر ! ...

أحكمتُ إقفالَ البابِ ووضعت الزجاجة على المائدةِ بالقرب

من البومـــةِ المحنّطة ، واعتمدت برأسى على يدى ، وأطلقتُ العِنَان لخواطرى ! ...

لقد أكلتُ الظهرَ بشهيةٍ أدهشت زوجتى ... وكنتُ فرحاً أحدثها بمختلف الأحاديث ، وأماجنُها بفكاهاتٍ ونوادرَ ... يحق لها أن تتعجبَ من كل هذا ... إنها تستبشر وتقول : إن صحتى تتقدمُ فى اطراد ! ...

وقبل المغرب بقليل حمل الخادمُ « الكلب » الذى أوصيته باختياره ... كلبٌ قد نهكته الشيخوخة وطحنه المرض ... جسمه متآكلٌ كأنه مصاب بجرب ... ولا شعرَ يغطى جلدَه المشقق .

أف لهذه الجيفة المتحركة ... إنه مطروح أمامى يتنفس فى جهدٍ ، ولكنه يرفع رأسه ويشم الهواءَ ويحاولُ أن يبصبصَ بذنبه ، وعيناهُ الكدرتانِ المطبق نصفاهما تستجـــديانِ شيئا ... ما هو ؟ ... أيكون طعاماً يشبع معدته الخاوية . أم دواء يخفف من آلامه المبرحة ؟ ... إذا قدر لهذا الحيوان أن ينطقَ فماذا يجيب لو سألتُه عن الموت ؟ ... وهل يفضّلُه على حياته هذه ؟ ...

كنت أريد أن أوثقَ أقدامه ، ولكنه من الضعف بحيث لا يستطيع المقاومة ، فضلا على أنه مطمئن لوجودى ، ينظر إلىّ

دائما بهاتين العينين المستجديتين ... صبرا يا صديقي ! ... ولكن لا تتعبني بهذا الاستجداء الممضّ ... لقد فتحتُ « الزجاجة الصفراءَ » فتصاعدتْ منها رائحة قوية كرائحة السوائل الكاوية... إن صديقي الصيدليّ الذي سرقتُ منه هذا السائل لم يحدثني كثيرا عنه ... لا يهم ... إني أذكر حقا قوله لي : إن نقطتين تكفيان لدكّ أكبر صرح حيّ في الوجود ...

لقد سكبتُ على لسانه نقطة واحدةً ... واحدةً فقط ، فإذا بذلك اللسان الناحل يحتقنُ ثم تعلوه طبقة كالغمام أو كالأبخرة كأنه يحترق .. لقد أطبق الحيوانُ فمه ... أو في الحق ساعدته على إطباقه... ثم وضع رأسه على الأرض ... تنفسه يبطيء بالتدريج ويضعف ، ولا شكايةَ من ألم ولا أنينَ ... إنه يَفنَى في هدوء غريب... وفي سهولة لم أكن أتوقعها... . يخيل إليّ أنه يبتسم !...

* * *

لماذا لا يبيحون للإنسان أن يتصرّف في حياته كما يشتهي ؟... ولماذا لا يساعدونه على ذلك ؟ ... أليس من العدل مثلا أن تقامَ أنديةٌ فخمة تخصّص للانتحار ؟... أنديةٌ تحوي الغرفَ الوثيرةَ الرياشِ ذواتِ الألوانِ المختلفةِ ، يقصدها من يرغب في القضاء على نفسه بالوسائل التي يختارها ،وفي الجو الذي يطلبه ، ولم لا تمنح الحكومات الجوائز المالية الضخمة للمكتشفين

الذين يقدمون لها الأجهزة والعقاقير التي تعمل على إطلاق الأرواح من محابسها ؟ . . .

اليوم وأنا جالس في الشُّرفة — وغيرَ بعيدة عني البومة المحنَّطة — لاحظت أن يدي ترتعش ... لم يكن ذلك وهماً . . . إن قدحَ القهوة كادَ يسقط مني ، وكادت القهوة تندلقُ على ثيابي... هذه ظاهرة جديدة لم أحسَّها من قبلُ ! . . .

بي رغبة ملحة في الصمت وفي التفكير ، لقد أمرتهم ألا يقربوني وأمضيت اليوم كله وأنا كالتمثال أحدِّق في الأفق البعيد ، وأناجي بين وقت ووقت بومتي المحنطة ، وأستلهم منها وحي أفكاري ، ولما بدأ الليل يرخي ستاره قامت بي رغبة مستعرَة لأن أزورَ المستنقعات ... هنالكَ وقفت طويلا أمام الجِيَفِ المبعثرة ... إن الكلاب تتألبُ عليها وتفنيها في سرعة غريبة ، ولكنَ لا يلوحُ الصباح حتى يأتي الجديد منها ... هناك حركةٌ مستمرة على ضفاف هذه المستنقعات : حركةٌ نشيطة حقا . . .

أي دنيا هذه التي نعيش فيها ؟ . . . إنها لشديدة الشبَه بهذه المستنقعات الملأى بالجِيَفِ والكلاب ! . . .

والعجب أني أرى أناسا يتكالبون عليها...يا لَلمساكين ! ...

لقد خلا المنزل من جميع قاطنيه ، ولم يبق فيه سواي وبومتي

المحنّطة ، إنها مثبتة على المائدة تحدّق فيها بعيونها الفارغة ... إنها فارغة ولكنها عميقة ملأى بالأسرار ...

الجميع ذهبوا لحضور عُرس ابنةِ العمدة ... ولقد شجعتُ زوجتى على الذهاب ... لقد أصبحتْ مطمئنة علىّ ... المكان ساكنٌ سكونا رائعا ؛ والليل الذى تتوالى هجَمَاتُه علىّ فى عنف لا يُسمَعُ فيه غيرُ أصوات بعيدة ... بعيدة جدا ... أريد أن أحسَ الظــلام يلفنِي بعباءتِه السحرية . أريد أن أحسّ روحَه تنفذ إلى شَغافِ قلبى ... الظلام ! ... إنه القوة الحقيقية المسيطِرة على هذا الوجود ، ولكن أىُّ شىء يسكن خلفَ هذا الظلام ؟ ... هناك عوالمُ أخرى مجهولة تتطلبُ دائما رُوّادا ليكتشِفُوها ! ...

نقطتان فقط ... لا أكثرَ من نقطتين ... أريد أن أتمدد على الفراش بحيثُ يكون وجهى مقابلا لوجهِ ... البومة إنها آخرُ شىء أرغبُ أن يقعَ عليه نظرى .

تلك هى أولُ نقطة أضعُها على لسانى ... طعمه ليس كريها هذا السائل ! ... كالخمر المعتّقة ... بل أقوى من الخمر المعتقةِ ... أشعرُ بجسمى كأن النارَ قد بدأت تَشُبُّ فيه ! ...

تلك هى النقطة الثانية ... إنى لأرى الأبخرة التى كانت تتصاعد من لسان الكلب الأجرب تتصاعدُ من جسمى كله ، كأنى سابح

وسطَ الغمَـــامِ ... إنى أحترق ... ولكنْ فى هدوءٍ غريب ... هدوءٍ لذيذ ... مازلتُ أرى البومة وَحدَها أو بالأحرى عينيْـها الفارغتيْن ... ها قد أصبحتُ يا صديقى رائدا من جملة الرواد العظَـماء ...

الدنيا الجديدة تنتظر قدومى ... الدنيا الجديدة بكنوزها العظيمة ... نبضى يضعُـف ... الغيومُ تتكاثف ! ...

ليلة العرس

كانت مبتهجة على غير مألوف عادتها، فصففت شعرها، وتزينت على قدر ماتسمح به حالها، لم يعقها عن ذلك خمارها المهلهل، ولا جلبابها البالى.

وخرجت أمام الدار، والابتسامة تلوح على ثغرها، وجلست على الأرض بجوار المصطبة ... لم تجرؤ أن تعتليها، وتستمتع بلمس حصيرها اللامع، المبسوط على سطحها، وهل تنسى يوم خرج إخوتها وأخواتها لأبيها، وانطلقوا يلعبون على هذه المصطبة، فلما تقدمت للعب معهم، رنت فى صحن الدار صيحة زوج أبيها، تلك الصيحة الملأى بالحقد والكراهية، ثم رأت شبح أبيها نفسه على الباب، وهو يلوح لها بعصاه الغليظة ... منذ ذلك اليوم لم تفكر أن تقرب المصطبة، حتى فى هذا اليوم الذى خلت فيه الدار من ساكنيها ...!

لقد جمع الأب زوجه وأولادها، وذهب الجمع إلى البلدة يشهدون الاحتفال بزواج ابن العمدة .. أما هى فقد أمرت ألا تبرح الدار، لتتعهد البهائم والطيور...!

وهي على الرغم من كلّ هذا ليستْ مبتئسة ولا حزينة ... إنها وحدها لا يضايقها أحد ... أليس هذا كسْبا طيبًا لها ؟ ... لا نكايةَ ولا استفزازَ من بني أبيها ... ولا انتهارَ ولا إيذاء من الأبِ وزوجِه ... هي وحيدةٌ تستطيع أن تبتسمَ وتضحكَ في أمنٍ وطُمأنينة ... بل في مقدورِها أن تفعلَ أكثر من الضحك والابتسام ... ترقُص أو تُغنى إذا حلا لها الرقصُ أو الغناء ... !

إن البلدة التي بها دارُ العمدةِ ليست نائية عن بيت أبيها ، فهي تسمع صوتَ الطبل المبهج ، ونَغَمَ المِزمَارِ الشجيِّ ، مختلطا بالتهاليل والأغاريد ، يحملُها إليها نسيم الأصيلِ ! ... وإنها لترنُو نحوَ البلدة ، فتحتشدُ في مخيلتها مناظرُ شتى مما يكون في الأعراس ... جماهيرُ مزدحمة ... هَرَجٌ ومَرَجٌ ... موائدُ تزخر بأطيب الطعامِ ... ثم هذه الأنوارُ ؛ أنوارُ المصابيحِ الكبيرةِ ذوات الشُّعاع الأبيض الذي يبهر الأبصار ... !

كانت ترنو إلى البلدةِ راضية مسرورةً ، وهي ترتّبُ بين الحينِ والحينِ شعرَها . وتُسوِّي جلبابَها ، ثم تصغي ... وتصغي ... ولا تفتأ تصغي ... !

لقد أخذت الظلمة تنبسط على القرى بأسرها ، وراحَ النسيم اللطيفُ ينقلب هواء رطبا باردا ، فلم تغادر الفتاةُ مكانها ...

بل اكتفت بأن جمعت ثوبها عليها ، وانكمشت بجوار الحائط ، وهى مازالت رانية نحو البلدة ، تتسمّع أصوات العرس من بعيد ، وتصور لنفسها حفلة الزفاف ! ...

إن للعمدة ابنا ثانيا ، يكبرها ببضع سنين ، وسيم الطلعة ، يحمل طابع الرجولة ... وفى مرات متعددة رأته وهو ذاهب إلى المدرسة فى « البندر » ، يضج بالصياح والضحك ، على حماره الرشيق ، وخلفه غلام يحمـــل له الكتب . فكان فى كل مرة تقابله فيها ، يلفت إليها ويبتسم ، فتجيبه على ابتسامته بمثلها !..

سوف يُنهِى هذا الفتى الأنيق دراسته ، ويتقلد منصبه الكبيرَ فى البندر ، ثم لا يلبث أن يحضر إلى أبيها ويخطبها عروسا له ، ويدفعَ لها مهرا غاليا لم يدفعه ابنُ عمدة لعذراءَ قبلها !...

فإذا ما عرض عليه الأب أن يختار عروسه من بناته الأخريات ، أصرّ الفتى على رأيه الأول ، ولم يُجْدِ احتجاج زوج الأب شيئا ! ...

ويأتى العمدة نفسه . ويغمرُ المنزلَ بالهدايا . ثم تحل وشيكا ليلة العرس بطبلها وزمرها ... بأغاريدها وطلقاتها النارية . . بأنوارها الوهّاجة التى تعشى الأبصار ..بالحنّاءِ تخضب بها يديها وقدميها.. بالموسيقى تتقدم هودجها ، وهى تنصت لهمس الجموع حولها : « ما أبهى العروسَ فى ثوبها الأحمر الموشى !... » ، بزوجها وهو يتقدم الركب ، ويختلس إليها النظرَ بين لحظة وأخرى ! ...

وهكذا مضت الفتاة تتصفحُ مناظر المستقبل حتى ثقلتْ أجفانها واحتواها سباتٌ عميق !...

* * *

عاد أفراد الأسرة من العرس يحملون ألوانَ الحلوى، ملفوفة في ورق مفضّض، فظلوا يأكلونَ ويرمــــون الفتاة بالورقِ، فتجمعه وتبقيه في يدها .. وانطلقَ الأطفالُ يتحدثون، كلُّ فرد يروي حكايته عن العرس، والفتاةُ ملقيةٌ بالها إلى كل ما يقال...

وما إن أتموا حديثهم، حتى صاح أحدُهم يقول:

وأنتِ ؟ ... أليس عندك ما تروينه ؟...

فنشطتْ لامعة العين خافقة القلب، تقول:

نعم عندي حكاية جميلة، عن عرس كبير !...

— حكاية عن عرس كبير ؟ ... ما هي ؟!

— هي ... هي ...

ووجدت الكلماتِ تتعثرُ بغتة على لسانها... وتزايلت ابتسامتها، ولم تنطق بحرف.

فثار الأطفالُ يضحكون ... !

* * *

وذهب كل يتفقد مرقدَه، وقصدتْ هي إلى ركنها المعهود، عن كثب من الجاموسة، وألقتْ بنفسها على كومةِ الهشيم.

ولما استبد النوم بأهلِ الدار، أخرجتِ الفتاة من الهشيم عروسها البالية المحشُوَّة بالقطن، وأجلستها قُبالتَها، واندفعتْ تروى لها فى حماسٍ وتنميق، قصَّتها الكبرى؛ قصةَ عرسها!...

ورفعتِ الجاموسة رأسها وعيناها تلتمعان؟... ثم ما لبثتْ أن مسحتْ أنفها اللامعَ بلسانها الثُّعباني، وأطلقتْ خواراً هادئاً تحيي به الفتاة، وتقول لها:

«هنيئا لكِ يا بنَيَّة هذا الزواج السعيد!...»

أما عروس القطن، فقد سحرتها روعةُ القصة، وحسنُ بيانِ الفتاة ولم تفه بشيء، ولكنها مكثتْ تحدِّق صامتة فى سيدتها بعيونها السُّودِ ذاتِ الأهدابِ العريضة، وظلتْ تصغى... وتصغى... ولا تفتأ تصغى...!

على الحيـاد

كنا في فصل الصيف ، فاشتدت رغبتي فى الخروج عصرا إلى منطقة « الجيزة » لأقضي ساعة فى حدائق « الأورمان » أنعم بين جداولها الجارية ، وتحت خمائلها الوارفة ، بذلك النسيم الرطب الفوّاح الذى حُرِمتُ أن يزورني في مسكني العتيـــق بشارع « محمد على » !...

ركبت « الحافلةَ رقم ٦ » من ميدان « إبراهيم باشا » وكانت المركبة خالية ، وعامل التذاكر فى الدرجة الثانية يراجع نقوده فى خمول !...

وما إن وقفت « الحافلة » عند المحطة التالية ، حتى شاهدت رجلا بدينا يدخل مُتئِدَ الخُطا ... عرفته فى الحال ، وهل يجهله أحد ؟ ... كلنا يعرفُه بشكله وحدَه ، وقد غاب عنا أن نسألَ عن اسمه ... من ينسى هذا الوجه المطهّم المشرَبَ بالحمرة الدائمة ، وذلك اللُغْدَ «الأرستقراطي» المدّلى على رقبته ، وهذا الكرشُ الفخم الذى يسبقه فى السير يفسحُ له الطريق ؟ !...

لا أذكر مرة أنني ذهبت إلى « جروبى » إلا وجدته يملأ ركنا

يأكله ، وأمامه أطباق الفطائر الشهية يأكلها فى تلذذ ورضا . ولم أقصد إلى مطعم من المطاعم الشهيرة إلا رأيتُه منفردا بنفسه ، ومائدته تحفل بالفاخر المتعدد من ألوان الطعام ، وهو يكرع بين الفينة والفينة من نبيذه الطيب ، فكنتُ أتأمله طويلا ، ثم أرمُق على مضض مائدتى عليها الدجاجة المسلوقة ، وزجاجة الدواءِ الكريهِ المذَاق !...

وقد اتصلت بينى وبينه ـ لكثرة رؤيتى له ـ معرفة صامتة لا تتعدى التحيةَ ، مشفوعة بالابتسامة السانحة ! . . .

فما إن دخل المركبة ولمحنى ، حتى بادرنى بتحيته العابرة ، ثم جلس على مقعد قريب من الباب ، وقد اجتمع كَرِشه أمامه اجتماعَ الوليد فى حَجرِ أمه !...

وكان يرتدى حُلة فاخرة من التيل الأبيض ، ولاحظتُ أنه يداعب بين فترة وأخرى من جيب سترته الأعلى سلسلةً ذهبية ، تنتهى بساعة ثمينة من الذهب أيضا ، كان يتأملهما فى عناية وشغف ، فتأكد لى أنهما جديدتان .

وفى المحطة القائمة فى حى « بولاق » صعد إلى المركبة رجل ضئيلُ الجسم ، أخذ يدور فى المكان بعينيه ، فما إن وقع بصره علينا حتى دخل الدرجة الأولى ، وجلسَ معنا .

واتضح لى من أول نظرة ألقيتها عليه إلى أى الطبقات ينتمى ...

كان فى أناقة مبتـــذلة ، وله عينـــان كعينى الهر الجَشِـع ، وعلى فمه ابتسامَة رخيصة لا تفارِق شفتيه ... جلس ، ووضع ساقا عَلى ساق ، وأخـــذ يسارِقنا النظرَ ، وإذ أخرج صديق البدينُ الثرئُ ساعتَه ينظر فيها وفى عِلاَقَتِـها مُعجَبًا فخورا : — رأيت عينَىِ الهرّ قد إلتَمَعَتَـا بوميضٍ ثائر .. !

منذَ ذلك الوقت لم يحول الغريب نظره عن صدر صديق ، وكنا قد دخلنا منطَقة « الزمالك » ، واستقبلنا نسيمٌ عطرى لطيف أخذ يداعبُ وجوهنا ، وألفيتُ الصديقَ البدينَ يسندُ رأسه إلى النافذة ويطبقُ جفنيه . ولم تطـُل به الحال حتى سمعت غطيطاً هادئا يصدر من ناحيته ! ...

وبسطتُ أمامى صحيفة « الأهرام » ، وتظاهرتُ بقراءتها ، وأنا أرقـُب الهرّ مراقبةً دقيقة ... كانت حدقتا عينيه تدوران فى حركة عصبية ، فأدنيتُ الصحيفةَ من وجهى وأنا أبتسم ، وقد طغى علىّ شعور طارىء ، وهو مزاج من غبطة وشر ! ...

وأحسستُ الغريبَ يتململُ فى جلسَته ، فأرحتُ راسى على النافذة ، وأطبقتُ جفنىّ متناوما ، وشاعت على وجهى ابتسامةٌ صافية ... وبعد فترة شعَرتُ بالهرّ يدنو فى حذرٍ إلى موضع قريبٍ من صديق الثرى ! ..

وكان النسيمُ يهب مشبَعا بعطر الزّهرِ العَبِق ، فوجدتُني أسترسلُ فى أحلامٍ هائمة ، أعرض فيها مناظرَ مختلفة من حياتى ، كان يعترضها بين حين وحين جِرْمُ صديق البدين وهو منهمك يأكل طعاما .. أو شَبَحُ الحر وهو يداعبُ بين أصابعه السلسلةَ الذهبية بساعتها الثمينة . . . !

ولم تمض فترة حتى ذهب عنى التفكير فى البَدِينِ وفى الغريب .. واستغرقتنى تأملاتى الخاصة ، وأنا منتعشٌ بصافى النسيم !

وأخيراً أحسَسْت يدا تهزُّنى ... فإذا عامل التذاكر يوقظنى وينبّهنى إلى أننا وصلنا إلى « الجيزة » ؛ فتعجبت من سرعة انقضاء الوقت، وتأهبتُ للنزول ... ووجدت أمامى صديقَ الثرىَّ يتهادى فى مِشيته ووجهه السلم ... أما الغريب فلم أعثر له فى العربة على أثر ...

وشعرت بدافع يحفزُنى إلى أن أسبق الثرىَّ فى النزول ، ومررت به وأنا أرمق جيبَ سترته الأعلى ...

لقد اختفت السلسلة ومعها الساعة ! . . . وعلت فى ابتسامة عريضة أخذت تتحولُ سريعا إلى ضِحْكةٍ عابثةٍ ، وتركتُ المركبة وقد أخذتُ من جيب سترتى منديلاً أحبس به تلكَ الضحكة ، أو أخففَ من حِدَّتها . ولكن سرعانَ ما وجدتنى أتحسس جيبى ثم اندفعت أفتش فيه باهتمام وذعر : أين قلمىَ

«الباركر» الجديد الذى اشتريته نسيئة ، ولم أؤد من ثمنه إلا الدفعة الأولى ؟ . . .

ووقفت أمسح وجهى المحتقن ، وأنا أراقب فى عطف صديق البدين ، وهو يتمايل فى مسيره ، وقد بدأ الزحام يحتويه ! . .

* * *

وتواصلت الأيام ...

وتوثقت بينى وبين صديق الثرى روابط صداقة متينة ، فكنت أشاركه بسرور مائدته فى المطعم ... وصرت لا أتأفف من دجاجتى المسلوقة ، ولا من زجاجة الدواء الكريه المذاق ... !

الجنتلمان

كنت وصديقى «عزوز» إذا طالت جلستنا فى القهوة، ورغبنا فى تناول العشاء، قصدنا «مطعم فورفاتلى» بشارع «عدلى»!...
وكنا نفضله على سائر المطاعم — بالرغم من صغره وتواضعه — لعنايته بإعداد بعض الألوان الإيطالية الأصيلة!...

وأعلن «السنيور فورفاتلى» أنه سيحدث انقلابا فى مطعمه، يتناول كلّ شىء فيه بالتجديد. وذهبنا يوم الاحتفال بافتتاح المطعم فى مظهره الحديث، فلم نرَ إلاّ تغييرا يسيرا سطحيًّا إذا استثنيت أمراً واحداً جديرا بالملاحظة؛ ذلك أنّ «السنيور فورفاتلى» رأى أن ينصبَ على مقربةٍ من باب المطعم دُمْيَـةَ من ورق مقوّى، تمثل سيداً أنيقا يحمل فى يده قائمةَ الطعام، وكانوا يسلطون على هذه الدمية نورا كهربياً تبدو به بهيجةً تستوقف الأنظار.

ووقفت أتأمل هذه الدمية، فلم ترقنى هيئتها، على ما امتازت به من إتقان فى الصنعة.

كانت هذه الدمية تمثل شخصية السيد المتظرف الأنيق « رجل الصالون العصرى » ، وأنيس كل حفلة شائقة ، ومَنْ منا يجهل هذا المزهُوَّ المتحذلق وهو يخطر فى لبوسِ المحافل الرسمىّ ، ووجهَه الأمرد مستنير بشبه ابتسامة يختلط فيها الترحيب بالكبرياء ، وهذا « المونوكل » المثبت على حقّ عينه بمهارة خليقةٍ بالإعجاب ، وهذه الشّملةَ السوداء ذات البطانة الحريريّة البيضاء يبسطها على كتفيْه فى تأنق مصحوب بإهمال مقصود ، وأخيرا هذه اليدَ المكسوّةَ بالقفاز الأبيض آخذةً بعصاً مفضضةِ المقبض ، متلاعبةً بها . لبثتُ أتأمل الدميةَ وقتا وقد شغلتنى شخصيتها عن قائمة الطعام الماثلة فى يدها اليسرى ؛ ولكن « السنيور فورفاتلى » جاء ينبهنى إلى أن عَشَاءَ الليلةِ يحوى غيرَ « الاسبجتى النابوليتانية » صحناً من « الرافيولى » الفاخر، ثم تركنا ليستقبلَ بعض رواد مطعمه . وملْتُ على صديقى « عزوز » أقول وأنا أشير إلى الدمية :

ما رأيك فى هذا الصديق الجديد ؟ ...

ـــ لقد أتى به « السنيور فورفاتلى » ليستقبلَ ضيوفَ المطعم ألا ترى يدَه التى تحمل القائمةَ مشيرةً إلى الباب ترشدنا إليه؟

ـــ إنها طريقة جديدة فى تكريم الزُّوّار ؛ كأنى أسمعه يقول لنا وهو يدعونا إلى الدخول :

تفضلوا يا سادة ... وبالسُّمّ الهارى ... !

وتناولتُ عَشائى وأنا أزدَردُ الطعام غيرَ شاعرٍ بمذاقه ؛ إذ كنت مشغول الفكر بهذه الدُّمية الحقيرة . وكيف تأتى لها أن تظهر فى هذا اللباس الفاخر ، وألقيتُ مرةً بنظرة فى المرآة أمامى فبدتْ لى حُلتِي الجديدةُ — التى أدفع ثمنها أقساطا شهرية — غيرَ جديرةٍ بالثناء ! ...

* * *

كنتُ كلما ذهبتُ إلى « مطعم فورفاتلى » لقينى وجهُ ذلك « الجنتلمان » الأنيق بابتسامته الكاسفة ، فيرشُق كلٌّ منَّا صاحبه بنظرة عجلى ، نظرة يتجلى فيها الاحتقارُ والزِّراية ؛ وما هى إلاَّ أن أحوِّلَ طرْفى عنه ، وأنا أحثُّ خطاى نحو الباب .

وجلست مع صديقى عزوز على مائدتنا المختارة فى المطعم ، نتذوق حَسَاء « المينسترون » اللذيذ . وبغتةً ، رفعتُ رأسى وقلت :

لو كنتُ حاكما بأمره لقَضَيْتُ على هــذه الفئة الغَشُوم ...

فقال عزوز وهو منهمك يأكل :

أىَّ فئة تعنى ؟ ...

— فئة هؤلاء « الجنتِلْمِن » المزيفين ... فئة هؤلاء السادة

المتعطلين . هاته الدمى التي تخفى تحت مظهرها الرشيق رءوساً خاوية لا يَسكنها إلاّ الصلف والازدراءُ بالناس...

فأجابني «عزوز» وهو مازالَ منكبا على حسائه :

ولا تنس أن هذه الفئة هي زينة حيَاتنا الاجتماعية العصرية !...

وأقبل علينا «السنيور فورفاتلي» يستطلع رأينا في حساء «المينسترون» وقبلَ أن نجيبه بكلمة انطلق لسانه بحديث كأنه السيل الجارف يصف محاسن هـذا الحَسَاء وجودةَ طهوه !...

وصادفت «عزوز» مساء أحد الأيام في القهوة ، فبادرني بقوله :

سنذهبُ الليلةَ حتما إلى «مطعم فورفاتلي» !...

فقلت له وأنا أخلع طربوشي وأمسح وجهي :

ولم ؟

— لقد مررت به وأنا في طريقي إلى هنا فاستقبلني صديقك «الجنتلمان» وقرأت في قائمة الطعام التي يحملها في يده أن عشاء اليوم يحوى لونا من «اللازانيا» .

— «اللازانيا» ؟ !... إنها لذيذة !...»

— لذيذة جدا !...

— ولكن ! . . .

— ماذا ؟ . . .

— ليس لى رغبةٌ فى الذّهاب ! . . .

— كيف ؟ . . . ألستَ جائعا ؟ . . .

— جائع . . . ولكننى . . . ولكننى أفضل أكلةً طريفةً من الطعمية والفول ! . . .

— لقد سَقِم ذوقُك بلا ريب ، أتفضّل الطعمية والفولَ على « اللازانيا » . . . ؟

— وماذا فى ذلك ؟

— أتذكر أنك كثيرا ماطلبت من « السنيور فورفاتلى » هذا اللون من الطعام ؟ . . .

— هذا صحيح . . . ولكنى لاأحس الليلة رغبة فى تناوله ! . . .

وأصررت على رأيى فلم أرافقه .

* * *

وقلَّ اختلافى إلى «مطعم فورفاتلى» فكان صديقى « عزوز » يعجب من انصرافى عنه وزهـــدى فيه ، ويسائلنى فى ذلك ، فأزعم له أن المطعم ــ منذ تجديده ــ قد فقد طابَعَه القديم ، وفقد مع هـذا الطابَع ميزته فى جودةِ الطهو وإرضاءِ رُوّاده . فكان « عزوز » يحتج على هذا ويستنكرُه ! . . .

وخرجت مرة من المطعم ، وبينما كنت مارًّا عن كثَبٍ

« بالجنتلمان » ، إذ عثرت قدمي وكدتُ أسقط سقطة لا تخلو من خطر ، لولا أن أدركني « عزوز » فاعتدلتُ في وقفتي وأنا أصلحُ من شأني ، ووقع بصري على « الجنتلمان » وهو ماثلٌ في وقفته الأرستقراطية المتحذلقة ؛ فإذا هو منطلقُ الوجه في بشرٍ وانتصار ؛ وراعتني منه ابتسامة لم ألمحها على ثغره في هذا المظهر الساخر قبل الآن ، وخيِّل إليّ أنّ شفتيه تتحركان بغمغمة:

« ما أشد غباوتك من رجل غفل ! »

وشملني اعتقاد راسخٌ بأن هذا « الجنتلمان » كان سبب سقطتي؛ أتكونُ قدمُه اليمنى في حذائها اللامع الأنيق قد امتدتْ في طريقي فأعثرتني ؟ ... أو تكون تلك العصا الممقوتة ذات المقبض المفضض قد استطالتْ واعترضتْ قدمي ؟ ... ودنوت منه وقدْ رفعتُ يدي لأهويَ بها على خدِّه المصعَّر ... ولكنني وجدتني أنتزع قائمـةَ الطعَامِ من يده ، وأنهالُ عليها أمزّقها شر ممزّق .. !

منذ ذلك الحادث لم تطأ قدمي « مطعم فورفاتلي » ، وقابلت « عزوز » يوماً فحملَ إليَّ خبراً خطيراً ، ذلك أن « السنيور فورفاتلي » أفلس ؛ فلقد كان ممن يضاربون في السوق المالية فأصابته نكبةٌ فادحة ، فاضطر إلى أن يغلق مطعَمَه ، ورأيتني أفاجىءُ صديقي بقولي :

« والجنتلمان » ؟ ...

— إن مصابى فى المطعم أكبر من أن يجعلنى أهتمُّ بهذه الدُّمية...

— ولكنك تعلم على الأقل ما حل بمتاع « السنيور فورفاتلى »

— علمت أن كل ما يمتلكه فى المطعم قد بِيعَ بالمزايدة...

ولم أطلْ معه الحديثَ فى هذا الشأن، وفى اليوم التالى قصدتُ إلى المكان الذى كان يشغَله المطعم، وطفقتُ أسألُ البوابينَ والجيران عمن اشترى « الجنتلمانَ » فلم أحظ بجواب...

وتركتُ المكان، وأنا مَغيظٌ !...

* * *

وتوالت الأيام، وبينما كنت مارا فى حارة « جامع البنات » أمام حانوتِ « كوهينَ الورَّاق » إذ رأيتُ نفسى وجها لوجه أمامَ « الجنتلمان »، فبُهتُّ، وأحسستُ لحظةً حيرةً وارتباكاً ولكن سُرعان ما تزايلَ ذلكَ عنى، وألقيتُ بنظرة متفحصة عليه، فوجدته يحمل فى يده اليسرى لوحا من الورق المقوَّى مثبتةً فيه بطاقاتُ زيارة فى أشكال مختلفة وخطوط شتى، وكان كعهدى به يرتدى لَبُوسَ السهرة، وعلى كتفه الشَّملة الثمينة ملقاة فى إهمال مقصود، وما زال قابضا بيده اليمنى على عصاه الثمينة ذات المقبض المفضض، كان هو هو ذلك « الجنتلمان » الأرستقراطىّ، عروس « الصالون » العصرى... ولكنَّ شيئا واحداً لحظته لم أعهده فيه من قبل : شيئا راعنى وأشعرَنى بإحساس غريب ؛

هو تلك النظرة التي يرنو بها الناس . لقد تضاءلت لمعتها الوهّاجة المنطوية على الزّهو والصّلف ؛ أما وجهه فقد شاع فيه النُّحول والسقم واكتسى بطابع الأسى ، وخيل إلىّ وأنا أتفحصه أنه كان يُزيغُ بصره عني ليتجنبَ مواجهتي ، وكأنه يتململُ في وقفته ضجرا .
فابتسمتُ وقد انكببتُ على بطاقاته أتفرج ، وأنا أهمهم :
يالحظ العاثر ! ... من « مطعم فورفاتلي » الفاخر في شارع « عدلي » إلى ورّاق صغير في حارة « جامع البنات » ... !
وداعبت بعصاي عصاهُ ، فشعرت بها تهتزُّ في يده على وشك أن تتحطم . فتركته ومضيت في طريقي ! ...
لا أدري ما الذي دفعني إلى أن أكثرَ ترددي على حانوتِ « كوهينَ » الورّاق ، فأجعله مكانا مختارا أقضي فيه بعضَ الأصائل . لعله ذلك الجو القديم الذي يشمل حارة « جامع البنات » وملحقاتها ، حيث يطيب للمرء أن يستعيد ذكريات الماضي الحبيبة ... أو لعله شيء آخر لم أستبنه ، وعلى أية حال لا أنكر أنه كانت تحلو لي جلستي على المقعد الخشبي الخشن أمام الحانوت أرشفُ القهوة وأدخن على مَهَل ، أتحسس بين وقت وآخر حلتي الجديدة ، فخورا بجودةِ نسجها وأناقة تفصيلها ، وغير بعيد عني صاحبُنا « الجنتلمان » في وقفته التي لا تتغير ، يحمل على مضضٍ وكره منه لوحَ البطاقات يعرضه على المارين ! ...

* * *

وكنا فى مستهلّ الصيف ، فتهيأ لىَ الرحيلُ إلى رأس البر ، وأقمت فيه نحو شهر ، ولما عدتُ قصدت إلى دكان الورّاق ، فلم أر صاحبى « الجنتلمان » فى مكانه المألوف ، فسألت «كوهينَ» عنه فأخبرنى وهو لم يغادر مقعده أمامَ مكتبه ، وأنفه المقوس الطويلُ يعبثُ فى دفتر الحساب ، قائلا :

لقد ضقنا ذرعاً به ؛ طالما شكا المارّة منه ، زاعمينَ أنه يشغل حيّزاً كبيرا فى الحارة ، فيعوقهم فى الغدوّ والرواح ! ...

ـــ وما ذا صنعتم به ؟

ـــ بعناه .

ـــ لمن ؟

ـــ لشخص لا أعرفه ... رضى أن يدفع لى مبلغاً حسناً ثمناله ...

فتركت الحانوتَ على الأثر ، وأنا ضيّق الصدر ، وقد تجلتْ أمامى صورة ذلك السيد الأرستقراطىّ الأنيق وهـــو واقف فى سوق الرقيقِ تتناقله الأيدى كمتـاع غَثّ رخيص ، وقد ستر وجهه بطرْف شملته ؛ ليخفىَ نفسه عن أعين الشامـتين ! ...

وانقضتْ بضعة أشهر كدتُ أنسى فيها حـــوادث صاحبى « الجنتلمان » ، وبينما كنت أمر بحارة « بين الصـــورين » فى « الموسكى » ، إذ شعرت أن يداً تأخذ بطرَف سترتى ، فالتفتُّ فلم أر إلا كُومة من الملابس البالية موضوعة على شبه مِشجب أمام حانوتٍ من حوانيت بيع المتاع القديم ، فلم أعْنَ بالأمر ،

واعتزمتُ مواصلةَ سيرى ، غير أنه استرعى نظرى على حين بغتة هَناةٌ تشبه اليدَ فى قفاز أبيض قذر ظهرت من بين الملابس، وتصوَّر لى أنها كانت تضطربُ ؛ كأنها تستوقفنى ، فسددتُ أدراجى وقلبى يدُق، ومضيتُ على الفور أرفع كومة الملابس عن المشجب ، فبان لى رُوَيداً صديقى « الجنتلمان » ... يا لله ! ... ما أشدَّ شحوبه ، وما أكثر تجاعيدَ وجهه ! ... ورأيته كأنه يتنفس الصُّعدَاء ، ويحاولُ أن يرفع قامته المقوسةَ التى حناها وأذلها وقرُ تلك الملابسِ القديمةِ ... وقفتُ أتأمله فى حسرة وحَيرةٍ لا أجد من نفسى الشجاعة على الدنو منه... لقد كان كل شىء فيه ينطق بالبؤس والفاقة : شملة ممزَّقة ، وكسوة قذرةٌ عاثتْ فيها يدُ التخريب ... وعصاه الثمينة لم يبق منها غير مقبضها الفضى الحائل ، حرصَ على أن يبقيه فى يده ذكرى لحياة العز والسؤدُد ... و « المتوكل » لم أرَ له أثرا ... ولكن كل ذلك لم يعد شيئا مذكورا إذا قسناه بما دَهمَ عينيه ... يا للقدر القاسى ... لقد أصبحتَا مثقوبتَين؛ فهل فقدَ حاسة الإبصار ؟ ... وأخيرا وجدتُنى أدنو منه بخطا هينة ثم أطبقتُ بيدى على يده وطفقت أهزُّها فى حنوٍّ وإخلاص ، فأحسست شفتيه تختلجَان بابتسامة مكتئبة ، وكأن جفنيه انطبقا ، وانحدرَتْ منهما قطرتان لا معتان ...

وفى لحظة ألفيته ينهار أمامى. ويصبح كُومة من الأنقاض! ...

فهرس